حدوتة مصرية

قصة الوطن من حملة نابليون
إلى حلم محمد علي الضائع

بص وطل

دار ليلى

كتاب بص وطل "2"

حدوتة مصرية:

قصة الوطن من حملة نابليون الى حلم محمد علي الضائع.

حامد محمد حامد

الكتاب:
حدوتة مصرية
المؤلف:
حامد محمد
رقم الإيداع:
2007/25952
الغلاف:
نبيلة الطنطاوي
المدير التنفيذي:
أ. أحمد عبد المنعم
الإشراف العام:
أ. محمد سامي

* * *

دار ليلى

جمهورية مصر العربية-
23 ش السودان الدقي-
هاتف: 33370042

الموقع: www.darlila.com

حامد محمد

حدوتة مصرية

دار ليلى

مقدمة

لماذا نكتب من جديد عن مصر أيام الحملة الفرنسية وعصر "محمد علي"؟ ما الذي يمكن أن يقال بعد عشرات ومئات الكتب التي تناولت هذه الحقبة التاريخية بأدق تفاصيلها؟

لو اكتفينا بالنظر إلى الوراء واجترار الماضي لكانت مثل هذه الأسئلة مشروعة حقا. لكن هذا الكتاب ليس تأريخا لحقبة فاتت وانتهت، وإنما هو إعادة تصفح وقراءة في أوراق الماضي القريب من منظور الإنسان المهموم بقضايا اليوم، الذي يلتمس سبل الإصلاح على المستوى الفردي والجمعي. وفي هذا الإطار، يقلب الكتاب في صفحات الماضي لا ليستغرق فيه وينقطع بقارئه عن الحاضر، بل ليستخرج منه صورا ومشاهد مر عليها الكثيرون من قبل دون أن يلتفتوا إلى دلالاتها المهمة لحياتنا المعاصرة. إنه كتاب لا يرجع بقارئه قرونا إلى الوراء، لكنه يستحضر ما فات ليضعه في قلب اللحظة الحاضرة بما تحمله من شواغل وهموم.

ولد مشروع "حدوتة مصرية" من رحم موقع إلكتروني على شبكة الإنترنت boswtol.com، قامت فلسفته على الإطلال على كل ما يُحدث في نفوس الأجيال الشابة يقظة ويخلق لديهم وعيا إيجابيا بماضيهم وحاضرهم، واستمد الموقع اسمه (بص وطل) من بيت كتبه شاعر العامية الأشهر

"بيرم التونسي" منذ نحو نصف قرن من الزمان، وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يزال وصفا صادقا لحال مجتمعنا اليوم ونحن في مطلع الألفية الثالثة:

يا مصري وانت اللي هاممني من دون الكل   نمت والعالم فايق، قوم بص وطل

ثم جاء قلم وفكر الكاتب "حامد محمد حامد" -وهو نفسه من جيل الشباب- ليطرح تجسيدا رائعا لهذه الرؤية، فسطر سلسلة من المقالات على صفحات الموقع، كانت بمثابة إعادة اكتشاف لصفحات ثرية من تاريخ مصر الحديث، وكانت دليلا على أن الشباب لا يزال قادرا على أن يقرأ ويستوعب ويفكر ويحلل ويربط الماضي بالحاضر في إطار رؤية منهجية واعية.

من المفارقات المدهشة -بل المذهلة- التي تحضرنا في هذا السياق أن أقسام التاريخ في جامعاتنا المصرية تضم أضخم الدفعات من الدارسين في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية، في الوقت الذي ينقصنا فيه كأفراد وجماعات وجود الحس التاريخي السليم، بل إن التعرف على التاريخ -ولا نقول دراسته والتعمق فيه- يتراجع يوما بعد يوم في قائمة اهتمامات الأجيال الشابة، ليتحول إلى "كم مهمل" يظنون أنه لا قيمة له في حاضر يختلف عن الماضي كليا وجزئيا، وينفصل عنه تماما. قد نلتمس بعض العذر في ذلك للأجيال التي نشأت وتربت في خضم التدفق المعلوماتي الهائل في عصر ثورة الاتصالات، الذي طغت فيه الصورة المرئية على المعنى والقيمة، فأصبح الحديث عن تاريخنا القديم أو الحديث، أو حتى المعاصر، حديثا عن مادة ميتة وحكايات مكررة مملة. لكن لو أدركنا -كما هي الحال في هذا الكتاب- أن هذا التاريخ يمكن أن يكون حيا نابضا بين أيدينا اليوم

لتغيرت هذه النظرة، ولأمكننا بشيء من الأمل والتفاؤل الحذر أن نجد ما يحفزنا على السعي لعلاج بعض ما يقلقنا بشأن حاضرنا ومستقبلنا.

أما لماذا فترة الحملة الفرنسية وعصر "محمد علي" على وجه التحديد، فهذا سؤال ستجيب عنه سطور هذا الكتاب الذي يبين أن الكثير من ملامح مصر المعاصرة قد رُسمت في هذه الفترة التاريخية، أو تمخضت عن تطورات أفرزتها قوى الحراك الاجتماعي والسياسي والثقافي فيها.

ولا تنتهي الرحلة بنهاية عصر "محمد علي"، لكنها تمتد إلى عهد مصر الخديوية وبدايات التدخل الأوربي والحركة العرابية والاحتلال البريطاني.. لكنّ لهذا حديثا آخر في إصدارات أخرى تظهر تباعا في سلسة جديدة. أما هذه الحدوتة المصرية التي بين أيدينا فيكفي أن تضم قطوفا من فترة من أثرى الفترات في التاريخ المصري الحديث التي تستحق إعادة القراءة والاكتشاف مرات ومرات.

أحمد الشامي

رئيس تحرير موقع "بص وطل"

نوفمبر 2007

الشعب المصري .. حمال الأسية
الذي يلجأ الى "التجريس" والانتقام أحيانا!



لأن معظم المؤرخين يشيرون إلى أن تاريخ مصرالحديث بدأ منذ تولي "محمد علي" حكم مصر في سنة 1805، فإننا سنبدأ الحدوتة من هذا التاريخ، وقبل أن نروي ما حدث لابد أن نرجع إلى ما قبل هذا بعدة سنوات، عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر...

كانت مصر تعيش منذ الفتح العثماني لها على يد السلطان" سليم" سنة 1517 م - وعلى عكس الشائع- في ظل نظام سياسي محكم للغاية، وكان يقوم ككل الأنظمة الحديثة المطبقة حالياً على الفصل بين السلطات، إذ كان يحكم مصر وال يعينه السلطان العثماني، ولكن هذا الوالي لم يكن له حق

التصرف في شئون الدولة كما يشاء إلا بموافقة الديوان، وهو مجلس كان يضم قادة ورؤساء الجند، وإذا وقع خلاف بين الوالي وبينهم، يرفع الأمر إلى السلطان في إسطنبول ليحكم فيه، كما كان لأعضاء الديوان الحق في أن يعزلوا الوالي، فكان الديوان بمثابة سلطة رقابية وإشرافية على سلطة الوالي وهي أشياء تبدو لنا الآن وكأنها خيالية!

وبين سلطة الوالي وسلطة رؤساء الجند أوجد السلطان سليم سلطة ثالثة تحفظ التوازن بين الاثنين، وهي سلطة الأمراء المماليك الذين قدموا طاعتهم للسلطان العثماني فعينهم حكاماً للمديريات..

ولم يستمر ذلك النظام السياسي طويلاً، فمع حالة الضعف التي أصبحت عليها السلطنة العثمانية بسبب حروبها المتواصلة واختلال شئونها الداخلية، ولأن قادة الضباط والجند قد استقروا مع مرور الوقت في مصر وضعف ارتباطهم بعاصمة الدولة العثمانية، أصبح المماليك في نهاية الأمر هم أصحاب السلطة الحقيقية في مصر، وأصبح رئيس المماليك الذي يختارونه زعيماً لهم ويلقبونه ب"شيخ البلد" الحاكم الفعلي لمصر..

اللافت هنا أن المواطن المصري لم يكن يقوم بأية أدوار رئيسية في هذا المشهد، بل كان يبدو وكأنه "كومبارس".. وصامت أيضاً! ولكن هذا لا يعني أن الشعب المصري قبل الحملة الفرنسية كان مستكيناً للظلم والهوان على طول الخط، فالحقيقة أن أدق وصف للشعب المصري على طول تاريخه الطويل هو أنه (حمّال أسية)، ولكنه عندما يتيقن من أنه لا أمل في تغيير الأوضاع، فإنه يثور كبركان مدمر لا يبقي ولا يذر..

يروي لنا مؤرخ كفاح الشعب المصري "عبد الرحمن الجبرتي" في

كتابه الموسوعي "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" قصة "ياسف" ، ففي سنة 1697م – أي قبل أن تصل الحملة الفرنسية إلى مصر بمائة سنة - استدعي ملتزم دار سك النقود (مثل وزير المالية حالياً) للسفر إلى إسطنبول، وكان هذا الملتزم يهودياً اسمه "ياسف"، ولما سافر إلى هناك، سأله رجال الدولة عن أحوال مصر، وهل يمكن أن تزداد الضرائب على أهلها؟ فأجاب "ياسف": إن ذلك ممكن جدا، وإنه كفيل بتحصيلها من أهل مصر.

فما كان من السلطات العثمانية إلا أن قامت بزيادة الضرائب فعلا، ولما عاد "ياسف" إلى مصر، أرسل المنادين في الشوارع ليخبروا الناس بالضرائب الجديدة، فثار المصريون، وذهب وفد منهم يمثله التجار وأعيان البلد إلى الأمراء الذين اقتنعوا بمطالبهم وذهبوا بدورهم إلى الحاكم فلم يهتم بهم، فغضب الأمراء "الذين كان جميعهم مماليك في هذا الوقت" وطلبوا منه أن يسلمهم "ياسف" الذي تسبب في زيادة الضرائب، فرفض الحاكم طلبهم إلا أنهم أصرّوا عليه فما كان منه إلا أن رضخ تحت ضغوطهم وتوصل معهم إلى حل وسط يقضي بوضع "ياسف" في "العرقانة" - أي السجن- دون أن يسلمهم إياه، فوافق المماليك على هذا الحل، إلا أن ذلك لم يرق إلى باقي الشعب المصري الذي كان له رأي آخر..

فبعد عدة أيام ذهب عدد كبير من أبناء الشعب المصري نحو السجن وأخرجوا "ياسف" منه ثم قتلوه وجروه من رجليه، ووضعوه في قلب ميدان الرميلة – ميدان صلاح الدين حالياً - ثم جمعوا حطبا.. وأشعلوا فيه النار !

ويروي "الجبرتي" أيضاً أن الإسكندرية في سنة 1785م كان يحكمها قائد تركي ظالم، وكان جنود هذا القائد يعتدون على الناس ويسلبون أموالهم وينهبون بيوتهم .

وطلب أهالي الإسكندرية مراراً من هذا القائد أن يمنع اعتداء الجنود على أموالهم وأعراضهم، إلا أن القائد لم يستجب لهم ولم يستمع إليهم.. إلى أن جاء هذا اليوم الذي انقلب فيه أهالي الإسكندرية جميعهم على هذا الظلم الفاحش..

في هذا اليوم قام جنود القائد بقتل رجل من أهل الإسكندرية دون أي سبب منطقي، فلم يشتك الأهالي هذه المرة، بل دفعهم الغضب لأن يأخذوا بثأر قتيلهم بأيديهم، فاجتمعوا وذهبوا إلى حيث كان القائد فقبضوا عليه وضربوه، واشتدوا في إهانته وتحقيره، ثم "جرّسوه" - وكانت عقوبة "التجريس" شائعة في تلك العهود- فحلقوا نصف لحيته، وأركبوه على ظهر حمار، وأخذوا يطوفون به على هذه الصورة المهينة شوارع الإسكندرية وطرقاتها، وهم يصفعونه ويضربونه بالنعال!

بل وأكثر من ذلك، فإن شعب مصر قد استطاع أن ينتزع من حكامه وثيقة رسمية تضمن للشعب الحرية والعدل والأمن وذلك منذ أكثر من 200 سنة، ومازلنا مع "عبد الرحمن الجبرتي" ؛ وهو يروي لنا..

في سنة 1795 م جاء إلى الشيخ "عبد الله الشرقاوي" شيخ الأزهر آنذاك جماعة من فلاحي مدينة بلبيس، فشكوا إليه "محمد بك الألفي"، وأنه يفرض عليهم ضرائب ضخمة لا يقدرون عليها، فغضب الشيخ "الشرقاوي"، وتوجه إلى الجامع الأزهر، فجمع شيوخه وأقفلوا أبواب الجامع، وأعلنوا الإضراب العام: "فأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت

ثم ركبوا في ثاني يوم واجتمع عليهم خلق كثير من العامة وتبعوهم وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات وازدحم الناس على بيت الشيخ من جهة الباب والبركة؛ بحيث يراهم إبراهيم بك وقد بلغه اجتماعهم فبعث من قبله أيوب بك الدفتردار فحضر إليهم وسلم عليهم ووقف بين يديهم وسألهم عن مرادهم فقالوا له: نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات (الضرائب الباهظة) التي ابتدعتموها وأحدثتموها فقال: لا يمكن الإجابة إلى هذا كله فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات(!!) فقيل له: هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس وما الباعث على الإكثار من النفقات وشراء المماليك والأمير يكون أميرًا بالإعطاء لا بالأخذ"، بعدها اجتمع "إبراهيم بك" وأمراء المماليك بعلماء الأزهر وطال النقاش بينهما إلى أن أعلن الأمراء أنهم تابوا عما فعلوا في الشعب المصري، وأنهم سيراجعون الضرائب المفروضة على الشعب ويسيروا في الناس سيرة حسنة وكان القاضي حاضرًا بالمجلس فكتب حجة (وثيقة) عليهم بذلك وفرمن (أي صدّق) عليها الباشا وختم عليها إبراهيم بك وأرسلها إلى مراد بك فختم عليها أيضًا وانجلت الفتنة ورجع المشايخ وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة وهم ينادون حسب ما رسم ساداتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية ".

ورغم أن البكوات المماليك لم يعملوا بهذا الميثاق سوى لشهر واحد فقط؛ عادت بعده الأمور إلى ما كانت عليه من قبل، إلا أن هذا لا يقلل أبداً من إنجاز شعب مصر في تلك الفترة، ويكفيه أنه لم يرض بالظلم ووقف بشجاعة في وجه من يظلمه حتى لو كان حاكمه شخصياً!

جاء " نابليون" بجيشه الضخم فصرخ المصريون "يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف!"



كان السؤال المهم في ذلك الوقت هو لماذا جاءت الحملة بجيوش "الفرنسيس" إلى مصر؟! ما أعلنه "نابليون" حينها هو أنه قادم لتخليص مصر من حكم المماليك (الأشرار) الذين يظلمون شعب مصر (الطيب)، بل إن بعض المؤرخين الفرنسيين يرى أن سبب الحملة الفرنسية الرئيسي كان لإحساس الحكومة الفرنسية بالخزي والعار لترك مصر ذات التاريخ وحضارة الـ7000 سنة نائمة في سبات عميق، لذلك كان حتماً على فرنسا أن ترسل حملة إلى مصر لتوقظها من سباتها وتعيدها إلى سابق مجدها وحضارتها!!

بالطبع كان هناك السبب غير المعلن وهو -كما نعرف جميعاً- قطع طريق المواصلات بين إنجلترا ومستعمراتها في الشرق وخاصة الهند، وتكوين إمبراطورية فرنسية في الشرق، وأن فرنسا -كما نعرف أيضاً- كانت قوة عظمى وكانت عدوة انجلترا اللدودة في تلك الفترة..

أياً كان سبب الحملة الفرنسية، سيظل الاستعمار هو الاستعمار، ليس إلا عملية سرقة دولية، مهما تعددت مسمياته من استعمار إلى احتلال أو حتى تحت شعار محاربة الإرهاب وإحلال الديمقراطية!

وما يلفت النظر حقاً هو السهولة المتناهية التي تمت بها عملية الغزو الفرنسي لمصر، فتقريباً لم يواجه "نابليون" أية مقاومة تذكر، طبعاً باستثناء المقاومة الشعبية التي كانت مشتعلة في أرجاء مصر على الرغم من بدائيتها وضعف إمكانياتها،أما على المستوى الرسمي، وأعني به المماليك الذين كانوا يحكمون مصر فعلياً، فقد تركوا للفرنسيين الجمل بما حمل، فهرب "إبراهيم بك" بماله وأنصاره إلى سيناء ثم إلى الشام، بينما فر "مراد بك" إلى الصعيد! الطريف أنه عندما سمع المماليك خبر وصول سفن الفرنسيين إلى الإسكندرية ودمياط ورشيد، سخروا منهم وأعلنوا أنهم سيدهسون "الفرنسيس" بخيولهم!!

فوجئ المماليك بالفارق الهائل بين تسليحهم وتسليح الفرنسيين، لو شئنا الدقة فقد كان سبب احتلال مصر بهذه السهولة هو تخلفها العلمي الشديد مقارنة بتقدم فرنسا..

لن ندعي أن المماليك لم يكن لديهم مدافع أو أسلحة نارية، ولكنها كانت شديدة البدائية، ويبدو أنها لم تكن تستخدم على الإطلاق، حتى إن أغلب

الشعب المصري لم يكن يعرف عن المدافع والقنابل شيئاً، فيروي "الجبرتي" في كتابه أن المصريين ذعروا ذعراً شديداً من قنابل المدافع التي ضرب بها "نابليون" منطقة الأزهر خلال ثورة القاهرة الأولى، وأن الفرنسيين "ضربوا بالمدافع والبنبات على البيوت والحارات، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر، وجروا عليه المدافع والقنبر (القنابل)، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين، كسوق الغورية والفحامين، فلما سقط عليهم ذلك ورأوه، ولم يكونوا في عمرهم عاينوه، نادوا: يا سلام من هذه الآلام.. يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف ".

والواقع أن المجتمع المصري كان غارقاً في هذه الفترة بالإيمان بالأولياء والخرافات، فيحكي "الجبرتي" أن الشعب المصري قد أسرع إلى مقامات الأولياء يطلب المدد منهم لهزيمة الفرنسيين، وأثناء استعداد "مراد بك" للخروج لقتال "نابليون"، اجتمع شيوخ الطرق الصوفية الأحمدية والرفاعية في الجامع الأزهر وأخذوا يذكرون اسم الله (اللطيف) ليلطف الله بالناس وبمصر وينصرهم على الفرنسيين!

أما حين نقرأ ما كتبه "الجبرتي" عن مشاهداته في المجمع العلمي المصري الذي بنته الحملة الفرنسية في منطقة الناصرية بالقاهرة ليكون مقراً لعلماء الحملة الفرنسية ولتجاربهم العلمية في كل المجالات، فسنعرف بحق مقدار الفجوة العلمية التي كانت تفصلنا عن فرنسا في هذا الوقت، هذا مع ملاحظة أن "الجبرتي" لم يكن رجلاً جاهلاً كأغلب شعب مصر حينها، بل كان من مثقفي عصره وكانت عائلته من العائلات التي عرفت بالعلم والثقافة، ومع ذلك ذهل "الجبرتي" مما شاهده من (العجائب) في ذلك

المجمع العلمي، ودعونا نستمع إليه وهو يحكي عن مولد كهربي (دينامو) شاهده هناك:

"ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء كثيف ويظهر له صوت وطقطقة وإذا مسك علقاتها شخص ولو خيطًا لطيفًا متصلاً بها ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة (يقصد بقوة التيار الكهربائي) ومن لمس هذا اللامس أو شيئًا من ثيابه أو شيئًا متصلاً به حصل له ذلك ولو كانوا ألفًا أو أكثر، ولهم فيه (أي في المجمع العلمي) أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا!!"

ولا داعي لأن نذكر ما قاله عن بعض التجارب الكيميائية التي رآها هناك، وانبهاره الشديد بتجارب تشبه تلك التي يجريها التلاميذ الآن في المرحلة الإعدادية ..

ترى هل سنصاب بمثل هذا الذهول إذا أتيحت لنا الآن فرصة زيارة أحد المراكز العلمية في أمريكا مثلاً، أو هل سنفاجأ - إذا ما حدث صدام عسكري بيننا وبين الغرب أو إسرائيل مثلاً يوماً ما- بأن أسلحتنا بدائية للغاية مقارنة بأسلحتهم، ونخرج إلى الشوارع لنهتف من جديد "يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف"؟!

"محمد كريّم".. رجل الأعمال الذي حارب الفرنسيين!



كان السيد "محمد كريّم" واحداً من بسطاء الشعب، فقد نشأ "قبانياً" يزن البضائع في محل صغير بالإسكندرية، وكان ذكياً لماحاً محبوباً من الناس مما أهله لأن يختاره "مراد بك" بعد ذلك ليكون (عمدة) للإسكندرية ومديراً للجمرك بها، أي أنه كان حاكم الإسكندرية الأوحد والمتصرف فيها كما يشاء..

وفي 28 يونيو 1798م وصل إلى الإسكندرية الأسطول الإنجليزي الضخم بقيادة أمير البحار الإنجليزي الشهير "نلسون"، وكان "نلسون" قد خرج بأسطوله كما هو معروف لمطاردة الأسطول الفرنسي، وقابل

"نلسون" حاكم الإسكندرية السيد "محمد كريم" مستأذناً إياه في أن يظل بأسطوله أمام الإسكندرية ليحميها من هجوم الفرنسيين المرتقب، على أن تبيع لهم الإسكندرية الماء والزاد بأي سعر تحدده..

وكان رفض "كريّم" أن يتعاون مع الإنجليز قاطعاً، حتى إن "الجبرتي" يذكر في تاريخه أن "محمد كريم" قد خاطب الإنجليز "بغلظة" وقال لـ"نلسون": "إن مصر بلاد السلطان وليس للفرنسيين أو غيرهم شيء فيها، فاذهبوا أنتم عنا، وإذا جاء الفرنسيون فنحن كفء لحربهم وصدهم عن بلادنا.."

وبعد ذلك بأيام قليلة وصلت سفن "نابليون" إلى شواطئ العجمي، فأرسل السيد "محمد كريم" إلى "مراد بك" رسالة يستنجده فيها قائلاً: "إن العمارة التي حضرت - يقصد أسطول "نابليون"- مراكب عديدة ما لها أول يعرف ولا آخر يوصف، لله ورسوله أدركونا بالرجال"

وعلى الرغم من ضخامة الأسطول الفرنسي كما تصفه الرسالة، وعلى الرغم من تخلي "مراد بك" عنه، إلا أن ذلك كله لم يرهب السيد "محمد كريّم"، فقاد حركة الكفاح المسلح دفاعاً عن الإسكندرية، وكان دفاع أهل الإسكندرية عن أهل مدينتهم محل إعجاب الفرنسيين، فنجد مثلاً الجنرال "مينو" يكتب لـ"نابليون" قائلاً: "إن جنودنا يستحقون الثناء العظيم على ما بذلوه من الإقدام والهمة والذكاء وسط المخاطر العظيمة التي كانت تحيط بهم لأن الأعداء – يقصد أهل الإسكندرية- قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم"

وخشي "نابليون" من حدوث مذابح في الإسكندرية - وهو الذي أعلن

أنه إنما جاء لمحاربة المماليك فحسب- فأمر جنوده أن يكفوا أيديهم وطالب الأهالي بوقف القتال، فاستجابوا إذعاناً لقوة الفرنسيين وأسلحتهم الحديثة..

أما السيد "محمد كريم" فلم يلق سلاحه على الرغم من دخول الفرنسيين إلى المدينة، فظل معتصماً مع عدد من المقاتلين في قلعة " قايتباي" إلى أن نفدت ذخيرتهم فكفوا عن القتال وسلموا القلعة ، ولقد لقي "نابليون" السيد "محمد كريم" لقاءً كريماً، وقال له: "إني أخذتك وأنت تحمل سلاحك في وجهي ولي أن أجعلك أسيراً، ولكنك أبديت من الشجاعة ما يحملني على احترامك وتقديرك، لذلك أعيد إليك سلاحك وأبقيك حاكماً على الإسكندرية كما كنت، وأرجو أن تبدي من الإخلاص للجمهورية الفرنسية مثلما أبديت لحكومة المماليك الفاسدة"

وقد سجل أحد رجال "نابليون" وهو "فيفان دينون" هذا اللقاء بين "محمد كريم" و"نابليون" فقال: "لقد لاحظت على ملامح هذا الرجل الذكاء والدهاء، وكأنما كان يكتم عواطفه عنا". وقد ظهر فيما بعد أن السيد "محمد كريم" عندما استسلم للقوة وقبل أن يعمل تحت سيادة "نابليون" قد اعتزم في نفسه أمراً.. كان من الممكن أن يرضى "كريّم" بأن يكون عميلاً للفرنسيين ويتعاون معهم لكي يحافظ على منصبه وجاهه، وكان من الممكن أن يتذرع بأية حجة أو يدعي بأن هدفه أن يخدم وطنه وأهل مدينته أولاً وأخيراً بغض النظر عن أي شيء آخر ، لكن الرجل لم يكن من هذا النوع، وظهر ذلك في تلك المقاومة السرية التي لقيها جنود "نابليون" في الإسكندرية والبحيرة، وفي تنظيم هذه المقاومة، وما عرف بعد ذلك من اتصال المجاهدين بالسيد "محمد كريّم"، وزاد على ذلك أن

"كليبر" فرض على أهل الإسكندرية (سلفة) مالية قدرها 150 ألف فرانك، فعارض "كريّم" فيها وتباطأ في الموافقة عليها، ولم يبدِ حماسة لجمعها، وكان هذا المبلغ ضريبة ثقيلة على أهل الإسكندرية الذين كان عددهم حينها لا يزيد عن ثمانية آلاف نسمة فقط..

وبدأت الشكوك تساور "كليبر" نحو "كريّم"، فألقى القبض عليه يوم 20 يوليو سنة 1798م ثم نقله إلى إحدى سفن الأسطول في أبو قير ليضعف من قوة المقاومة التي كان يثيرها وجوده في الإسكندرية، ومع ذلك فقد عامله القادة الفرنسيون باحترام، بل وكانوا يؤدون له التحية العسكرية، ولما بلغت "نابليون" في القاهرة أنباء تلك المقاومة التي كان يذكيها السيد "محمد كريّم"، كتب إلى "كليبر" يخبره أنه تحقق من خيانة "كريّم" من مراسلات له وجدها في قصر "مراد بك"، وأمر أن يكبل "محمد كريم" بالحديد وأن يسجن أتباعه وحاشيته، وأن يعتقل كل أهل بيته، وتصادر داره وأمواله، وفوق كل هذا فرض عليه غرامة مقدارها 300 ألف فرنك، وهو ضعف المبلغ الذي طلبه "كليبر" من أهل الإسكندرية مجتمعين !

وقد كان لإبعاد السيد "كريّم" أثره في مقاومة أهل الإسكندرية، وكتب "كليبر" إلى "نابليون" يقول إن السكينة تسود الإسكندرية بعد اعتقال "محمد كريّم" ، ونقل "كريّم" إلى رشيد، ولكن الحماسة التي أثارها قدومه بين أهلها جعلت القائد يبادر بإرساله إلى القاهرة، وفي القاهرة حاكمه الجنرال "ديبوي" على تلك الرسائل التي طلب فيها من "مراد" الحضور إلى الإسكندرية والتي هوّن فيها من شأن الفرنسيين وشجعه على حربهم، وعلى رسائل أخرى كتبها "كريّم" لعرب البحيرة يحرضهم فيها

على المقاومة ، ولم ينكر السيد "محمد كريم" كل ذلك، فحكموا عليه بالإعدام رمياً بالرصاص، وسمحوا له بأن يفتدي نفسه بثلاثين ألف ريال يدفعها في يوم وليلة!! ، وتلقى السيد "محمد كريم" حكم الإعدام بشجاعة نادرة ورفض أن يفتدي نفسه، وعندما قال له "فانتور" كبير مترجمي الحملة الفرنسية: "إنك رجل غني، فلماذا لا تفتدي نفسك بهذا المال؟" فأجابه قائلاً: "إذا كان مقدراً عليّ أن أموت فلن يعصمني من الموت أن أدفعه، وإذا كان مقدراً لي الحياة فعلام أدفعه؟"وقد ذكر المؤرخ "نقولا الترك" أن "كريّم" كان ينادي في الناس محرضاً لهم والجند يسوقونه إلى ساحة الإعدام قائلاً: "يا أمة محمد.. اليوم بي وغداً بكم".

أما "الجبرتي" فيصف مقتل السيد "محمد كريم" بقوله: "أركبوه حماراً وأحاط به عدد من العسكر بأيديهم السيوف المسلولة ويتقدمهم طبلٌ يضربون عليه، إلى أن وصلوا به إلى ميدان الرميلة وربطوه، وضربوا عليه بالبنادق كعادتهم فيمن يقتلونهم، ثم قطعوا رأسه ورفعوها على نبوت، وطافوا بها جهات الرميلة والمنادي يقول: هذا جزاء من يخالف الفرنسيس" !

الشيخ "محمد السادات".. قاوم العثمانيين والفرنسيين وهو لا يملك سلاحا!



كان الشيخ "محمد السادات" من أكبر الشيوخ مقاماً وأعظمهم شأناً وأوسعهم جاهاً وثروة، وأعزهم منزلة بين الناس لأخلاقه الكريمة ولنسبه الشريف، حيث كان ينتمي للسادة الأشراف من سلالة الرسول - صلى الله عليه وسلم- وبعد أن وصلت الحملة الفرنسية إلى القاهرة، واستقرت الأوضاع لـ"نابليون" فيها، قام بتشكيل (الديوان)، وهو مجلس يمكننا أن نشبهه بمجالس الحكم الانتقالي في زماننا الحالي، وكان هذا الديوان يتكون من 9 أعضاء من شيوخ الأزهر، وكانت مهمته هي الوساطة بين شعب مصر و"نابليون"، أي أنه كان مجرد واجهة مصرية لأوامر "نابليون"، وبالمقابل فإن عضوية الديوان كانت منصباً يشار لصاحبه بالبنان، وتكفل عضوية الديوان لصاحبها العز والجاه والنفوذ، ولكن الشيخ "السادات"

أعرض عن هذا كله ورفض تكليف "نابليون" له بالمشاركة في الديوان..

وعندما قامت ثورة القاهرة الأولى اتهمه الفرنسيون بأنه كان المحرض الرئيسي عليها، وتوافرت الأدلة على ذلك بالفعل، الأمر الذي كانت عقوبته الوحيدة هي الإعدام، ولكن "نابليون" رأى أن إعدام الشيخ "السادات" سيثير مشاعر الناس ويجعل منه شهيداً، فلم يقتله..

وحين ثارت القاهرة للمرة الثانية في عهد "كليبر"، اتُّهم الشيخ "السادات" من جديد بتزعم الثورة، وتذكر "كليبر" تصرف "نابليون" فلم يقتل الشيخ "السادات"، لكنه فرض عليه غرامة باهظة (حوالي 150 ألف فرنك)، فلما رفض أن يدفعها أمر بسجنه في القلعة، وكان ينام على التراب، ويمشون به على قدميه في شوارع القاهرة، ويضربونه صباحاً ومساءً بالعصا، وحبسوا أتباعه وخدمه، وأرادوا أن يقبضوا على زوجته وابنه فلم يجدوهما، فعذبوا خادماً للشيخ "السادات" عذاباً شديداً حتى دل الفرنسيين على مكانهما، فقبضوا عليهما، وسجنوا الشيخ "السادات" مع زوجته في زنزانة واحدة، فكانوا يضربونه أمامها وهي تبكي، وهاجموا داره ففتشوها ونهبوا ما كان فيها من مال ومتاع، بل وحفروا أرضها للبحث عما فيها من سلاح وأموال، وبعدها أفرجوا عنه قبل أن يعودوا ويعتقلوه في القلعة مرة أخرى لخمسين يوماً ولم يفرجوا عنه ثانية إلا بعد أن دفع كل ما طلبوه منه، وبعد أن صادروا جميع ممتلكاته، وحددوا إقامته في منزله وشرطوا عليه ألا يجتمع بالناس إلا بإذنهم..

وقد مرض ابن الشيخ "السادات" وهو في السجن فلم يخرجه الفرنسيون ليراه، ثم مات فأذنوا له بالسير في جنازته وهو تحت الحراسة

ثم عادوا به إلى السجن من جديد، ويذكر "نابليون بونابرت" في مذكراته أن هذه المعاملة المهينة التي عامل بها "كليبر" الشيخ "السادات" كانت السبب الرئيسي في اغتياله بعد ذلك على يد "سليمان الحلبي" ، ولم يكن موقف الشيخ "السادات" المعادي للفرنسيين لمجرد أنهم أعداء محتلون للوطن، ولكنه كان موقفا عاما ضد الظلم والطغيان التزمه الرجل طوال حياته مهما كلفه هذا..

فعندما أمر "نابليون" مثلاً بعزل واعتقال قاضي القضاة التركي في مصر "ملا زادة" لم يتصدّ له أحد إلا الشيخ "السادات" لا حباً في الأتراك بقدر ما هو نابع من كرهه للظلم، فنجده يقف في وجه الوزير التركي "حسن باشا الجزايرلي" حين أوفدته الدولة العثمانية سنة 1786م إلى مصر لمحاربة المماليك واستعادة سلطتها المطلقة في مصر، فقد أسرف "حسن باشا" في الطغيان واستباح أموال المماليك وقبض على نسائهم وأولادهم وأمر ببيعهم في أسواق الرقيق، زاعماً بأنهم ملك لبيت المال، فذهب إليه الشيخ "السادات" وقال له: "أأنت أتيت إلى هذا البلد وأرسلك السلطان لإقامة العدل ورفع الظلم كما تقول أم لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحرمات؟"، فقال "حسن باشا": "هؤلاء عبيد لبيت المال"، فأجابه "السادات": "هذا لا يجوز ولم يقل به أحد"، فغضب الباشا على "السادات" وهدده بأن يبلغ السلطان معارضته لأوامره، فلم يعبأ "السادات" بتهديده وأصر على معارضته حتى أفحمه وأجبره على تغيير رأيه..

كان "السادات" في موقفه هذا معارضاً لسياسة الدولة العثمانية

ومتحدياً مبعوثها، ومؤيداً المماليك الذين كانت تعدهم الدولة من العصاة، ووقف كذلك في وجه "حسن باشا" عندما صادر أموال الأمراء المماليك، فقد فرّ زعماؤهم من القاهرة إلى الوجه القبلي حتى لا يبطش بهم "حسن باشا"، وأودع "إبراهيم بك" عند "السادات" أمانات ثمينة، فعلم بذلك "حسن باشا"، فأرسل يطلب هذه الودائع، فرفض بحزم أن يسلمها وقال له: "إن صاحبها لم يمت، وقد كتبت على نفسي وثيقة بذلك فلا أسلمها ما دام صاحبها على قيد الحياة"، فكاد "حسن باشا" يقتله لولا أن خشي من نفوذه ومنزلته بين قومه، وقف الشيخ "محمد السادات" هذا الموقف وهو أعزل لا سلاح معه إلا سلاح الحق، وقاوم إرادة وزير من وزراء الدولة جاء على رأس جيش ليعيد مصر إلى سلطة الدولة العثمانية، ولا يقف مثل هذا الموقف وخاصة في ذلك العصر إلا من كان على درجة كبيرة من الشجاعة، فنجد "الجبرتي" يقول عن الشيخ "السادات": "فاشتد غيظ "حسن باشا" منه، وقصد البطش به فحماه الله منه ببركة الانتصار للحق، وكان الباشا يقول لم أرَ في جميع الممالك التي دخلتها من تجرأ على مخالفتي مثل هذا الرجل".

احتفل وانسَ..
الأصل فرنسي والتطبيق مصري!



لم تكن عبقرية "نابليون بونابرت" السياسية تقل إطلاقاً عن عبقريته العسكرية، كان موقفه في مصر غريباً جداً.. كان يريد أن يحتل مصر ويسرق شعبها ويقنع المصريين - في نفس الوقت- أنه ليس لصاً وليس عدواً لهم! لقد كان "نابليون" لصاً كبيراً وسياسياً محترفاً..

كان من أوائل قراراته بعد دخول القاهرة إنشاء محكمة لتسجيل عقود ملكية العقارات (مثل الشهر العقاري حالياً) مقابل رسوم مرتفعة يدفعها الأهالي، وهو أمر لم يكن معروفاً قبل ذلك أيام المماليك، أما من يمتنع عن تسجيل عقود الملكية، ومن لا يملك عقوداً لملكية عقاراته (وهذا كان منتشراً جداً حينها فنحن نتحدث عن القرن الثامن عشر) ستنتقل ملكية هذه العقارات إلى الجمهورية الفرنسية! لم تكن الضرائب العقارية هي الوحيدة التي فرضها الفرنسيون على أهل مصر، فقد

أثقل "نابليون" كاهل المصريين بالضرائب، وكانت هذه السياسة كفيلة بأن يثوروا عليه من أول وهلة، ولكنه كما قلنا كان سياسياً بارعاً كما كان لصاً ماهراً، فاستطاع (تأخير) انفجار المصريين بعض الوقت..

وكانت أقصى كارثة تعرض لها "نابليون" وهو في مصر هي تدمير الأسطول الفرنسي في خليج "أبو قير" في أول أغسطس سنة **1798**م فقد كانت خسارة الفرنسيين فادحة، فقد تحطم الأسطول الفرنسي وقتل أميراله ومعظم أركان حربه ولم ينجُ من أكثر من **9000** بحار فرنسي سوى **3000** فقط، وغنم الإنجليز 6 سفن حربية فرنسية ضموها إلى الأسطول الإنجليزي، كل هذا في يوم واحد فقط.

وبالطبع في هذه الأوقات لم يكن من السهولة انتشار الأخبار، فمارس "نابليون" تعتيماً إعلامياً كبيراً حتى لا تصل أخبار هذه (الفضيحة) الفرنسية إلى أهل القاهرة، وحتى لا تصل تفاصيلها المروعة إلى الجنود الفرنسيين الذين أصبحوا يشعرون أنهم صاروا مسجونين في مصر إلى الأبد، ووصل الأمر إلى أن حكم الفرنسيون على رجلين مصريين بقطع ألسنتهما لأنهما حدثا الناس عن موقعة "أبو قير"، وكانت التهمة الجاهزة دوماً هي إثارة الفتن والشائعات المغرضة..!

كان "نابليون" يسعى بكل الوسائل إلى كسب قلوب المصريين وتخفيف حدة الكراهية التي كانت تبدو عليهم منذ احتلال الفرنسيين للبلاد، ومن الوسائل التي ابتكرها "نابليون" إقامة الحفلات والأفراح لإدخال السرور إلى قلوب الشعب المصري، وهو ما أطلق عليه المؤرخ الكبير "عبد الرحمن الرافعي" في كتابه الممتع "تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر" بـ"سياسة الحفلات"، وكان له غرض آخر من إقامة المهرجانات والحفلات، حيث أراد أن

يحجب عن الشعب أثر النكبة التي حلت بأسطوله في واقعة "أبو قير" البحرية ويتظاهر بأنه لا يكترث بها، وليتقرب إلى زعماء الشعب ليكسب ثقتهم في تلك الأوقات العصيبة بعد أن أصبح محاصراً في القارة الإفريقية..

فأخذ "نابليون" يتحين الفرص والمناسبات لإقامة الحفلات الباذخة لإلهاء الشعب المصري، فانتهز أولاً وفاء النيل ليشارك المصريين في احتفالهم به، فأمر بأن يجرى الاحتفال المعتاد وأن يشترك الجيش في المهرجان، وحضر "نابليون" الحفل بنفسه مع نائب الوالي والقاضي التركي وأعضاء الديوان وأعيان القاهرة، وأطلقت الصواريخ والألعاب النارية من البر والبحر، ولكن الأهالي - كما يذكر "الجبرتي"- لم يشتركوا في هذا الاحتفال ولم يخرجوا للتنزه ليلاً في المراكب كعادتهم كل عام، ومن ذلك نستطيع أن نتخيل الحالة النفسية للشعب المصري في تلك الأيام التي جعلتهم يعتكفون في منازلهم ولا يحتفلون بذلك اليوم الذي كانوا يبتهجون فيه كل عام، ويلفت "الجبرتي" نظرنا إلى أن الشائعات عن هزيمة الفرنسيين في "أبو قير" قد انتشرت في ذلك اليوم نفسه، فكأن "نابليون" أراد الاحتفال بوفاء النيل إخفاءً لمظاهر الحزن التي كانت تسيطر على الفرنسيين لضياع أسطولهم..

وانتهز "نابليون" مناسبة عيد الجمهورية الفرنسية الأولى في 22 سبتمبر وأقام بميدان الأزبكية احتفالاً عسكرياً مهيباً دعا إليه أعيان مصر كلهم سواءً من القاهرة أو من الأقاليم، وأبدع الفنانون الفرنسيون في تنسيق هذا الاحتفال وظلوا عدة أيام يقيمون أقواس النصر وينصبون السواري وعددها 109 سارية تمثل المقاطعات الفرنسية الـ109، ورفعت عليها أعلام موشاة بأسماء هذه المقاطعات، ونصبوا في وسط ميدان الأزبكية سارية عظيمة أطلقوا عليها "شجرة الحرية"، وأقاموا هياكل ضخمة من الخشب نقشوا عليها أسماء القتلى

الفرنسيين في مصر، وأقاموا قوسي نصر كبيرين بخلاف الأقواس الصغيرة، نقش على أحدهما صورة معركة إمبابة التي انتصر فيها "نابليون" على المماليك، ونقش على الآخر كلمة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" تملقاً للمصريين..

وجرى الاحتفال يوم 22 سبتمبر 1798م فاستعرض "نابليون" كتائب الجيش، وبعد انتهاء العرض دعا ضيوفه المصريين والفرنسيين إلى الغذاء على مائدته، وأضيء ميدان الأزبكية ليلاً بالأنوار، واستمرت الموسيقى تعزف إلى ما بعد منتصف الليل..

وعلى الرغم من فخامة هذا الاحتفال فإنه تقريباً لم يكن له أي تأثير على المصريين، فيقول الدكتور "ديجنت" كبير أطباء الحملة الفرنسية في مذكراته: "لقد تكلموا كثيراً حتى في أوربا عن حفلات عيد الجمهورية وتأثيرها في نفوس المصريين، على أني أؤكد أنها لم يكن لها أي أثر في سكان القاهرة بالرغم من مظاهر الفخامة التي أحيطت بها"

ومن أطرف الروايات التي قيلت عن احتفالات عيد الجمهورية الفرنسية ما ذكره المؤرخ "نيقولا الترك" الذي حضر هذه الاحتفالات وسجلها في كتابه "ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والديار الشامية" قائلا: "إن الفرنسيين كانوا يقولون إن السارية المرتفعة في قلب ميدان الأزبكية تسمى شجرة الحرية، بينما كان أهالي مصر يقولون .إن هذه السارية هي إشارة الخازوق الذي أعطاه الفرنسيون لنا واستيلاؤهم على أرضنا، واستمرت هذه السارية منصوبة نحو عشرة أشهر، وعندما رفعوها استبشر أهل مصر وابتهجوا" !

المقاومة المصرية.. بين التنظيم السري والتنظيم الشعبي!



أثناء بحثي عن معلومات حول مقاومة الشعب المصري الشرسة للحملة، توقفت كثيراً أمام رأي لأحد الكتاب، يرى فيه أنه كان هناك منظمة سرية على مستوى مصر بأكملها مهمتها هي مقاومة الغزو الفرنسي لمصر، بل وليس على مستوى مصر فحسب، بل وشملت مهامها أيضاً التنسيق مع المجاهدين العرب من كافة الأقطار للمشاركة في مقاومة المحتل الفرنسي، وعلى الرغم من أنه لا يوجد أي دليل تاريخي على هذا الرأي، فإن هذا الكاتب استدل على وجود مثل هذا التنظيم بالمقاومة الشعبية التي تفجرت في مصر بأكملها وبطريقة منظمة للغاية استطاعت أن تلحق خسائر فادحة في صفوف الجيش الفرنسي، ووصلت في بعض الأحيان إلى

أنها هددت الوجود الفرنسي بأكمله في مصر، وأنا شخصياً لا أعتقد بوجود مثل هذا التنظيم السري، وأرى أن الشعب المصري قادر على تنظيم صفوفه بمفرده ومقاومة العدوان بدون أن يكون هناك تنظيم مركزي يحركه، وهو قادر على أن ينتفض وأن يهب وحده للكفاح بدون وجود قائد يأمره بذلك، ولنأخذ هذه الأمثلة:

يحدد المؤرخون سبباً مباشراً لوقوع ثورة القاهرة الأولى في أكتوبر سنة 1798م، أي بعد أربعة شهور فقط من وصول الجيش الفرنسي لمصر، وهو وقوع بعض التصرفات المتعلقة بالسلوك العام لجنود وضباط الحملة الفرنسية الذين كانوا يجاهرون بشرب الخمور في الشوارع، ويتعرضون للنساء في الطرقات، إضافة لهدم بعض المساجد لتوسيع الطرق، وجميعها تصرفات جارحة للشعور المصري العام وتمثل عدواناً على كرامة المصريين، كل هذا بالطبع إلى جانب الضرائب الباهظة التي أمر "نابليون" بتحصيلها من المصريين..

بدأت الثورة كانتفاضة شعبية تلقائية ظهرت بعد أن تجمع عدد من المواطنين البسطاء "من غير رئيس يأمرهم ولا قائد يقودهم" ـ على حسب تعبير "الجبرتي"ـ ، وتوجه هذا الحشد إلى بيت "قاضي عسكر" (كبير القضاة التركي) ليطالبوه بالتوسط عند "نابليون" في شأن سلوك جنوده والضرائب التي فرضها على الناس، ولكن كبير القضاة لم يسمع لهم فشتموه، ورجموا بيته بالحجارة، والملاحظ هنا أن الجماهير لم تتجه للمشايخ كما كانت تفعل من قبل، ويبدو أن ذلك لأنهم فقدوا الأمل في أن يحقق لهم المشايخ شيئاً، فقد كان المشايخ على علاقة جيدة بـ"نابليون"

ولم يمنعوه من إجراءاته المستفزة للأهالي ..

سار الأهالي في الشوارع والتقوا بالجنرال "ديبوي" حاكم القاهرة ومعه عدد من حراسه وكان قد نزل إلى الشارع ليعاين الأمر بنفسه، فهاجم الأهالي الجنرال "ديبوي" وقتلوه وقتلوا حراسه واشتعلت الثورة بذلك، وفي الوقت نفسه كان هناك حشد من الأهالي يجتمعون في الأزهر، وخرج أحد "المتعممين" (وهو تعبير كان يطلق على طلبة الأزهر في ذلك الوقت) يطوف في الشوارع منادياً "كل من كان موحداً يأتي لجامع الأزهر، لأن اليوم المغازاة بالكفار، ونزيل عنا هذا العار، ونأخذ منهم الثار"

استجاب الأهالي البسطاء للنداء، وتجمع أكثر من ألف شخص في الجامع الأزهر، ولا يذكر لنا أحد ما الذي جرى في هذا اللقاء، ولكن "الرافعي" يذكر لنا نقلاً عن "نابليون" أن هناك لجنة للثورة تشكلت في الجامع الأزهر من المواطنين العاديين وهي التي تولت تنظيم أعمال الثورة وقيادة الجماهير، وانتهت ثورة القاهرة الأولى بمقتل 300 جندي فرنسي على رأسهم الجنرال "ديبوي"..

وأثناء حملة الجنرال "ديزيه" على الصعيد كانت 12 سفينة حربية تسير ببطء في النيل خلف الحملة، وكانت محملة بالذخائر، وعند قرية بارود جنوب قنا قام الأهالي بالهجوم المسلح على هذه السفن يوم 3 مارس 1799م، ولما ردّت مدافع السفن بشدة على هجوم الأهالي، تجمع المواطنون ونزلوا على النيل سباحة وهجموا على السفن واستولوا على شحنتها من الذخائر، كما استولوا أيضاً على سفينة القيادة "إيتاليا" وهي سفينة "نابليون" نفسه التي كان قد سلمها إلى الجنرال "ديزيه" ليقود بها

حملته على الصعيد، وطارد الأهالي رجال البحرية الفرنسية الذين حاولوا الهرب سباحة في النيل، وقتلوا معظمهم، وكان على رأس القتلى قائد السفينة "إيتاليا" الكابتن "موراندي"، وبلغ عدد قتلى الفرنسيين في هذا اليوم 500 قتيل من البحارة، ولما وصل خبر هذه الكارثة إلى "نابليون" حزن حزناً شديداً وبخاصة على سفينته "إيتاليا" واعتبر ما حدث لهذه السفينة نذير شؤم ، وكانت هذه المعركة من أعنف المعارك التي واجهت الحملة الفرنسية على يد الشعب المصري..

وأفرزت المقاومة المصرية عددا من الرموز الذين قد يكون أغلبهم مجهولين بالنسبة لمعظمنا؛ ومن هؤلاء الشيخ "حسن طوبار" والشيخ الكفيف "سليمان الجوسقي"..

الشيخ "حسن طوبار"..
الأغنياء يقاومون أيضا!



لم تمر السنوات الثلاث التي بقيت فيها الحملة الفرنسية في مصر بهدوء إذ شهدت البلاد في طولها وعرضها مقاومة للقوات المحتلة أصابت الكرامة الحربية الفرنسية في مقتل خاصة مع الفارق الكبير في العتاد والأسلحة بين الطرفين ، وفي وسط المصريين الذين قاموا وصمدوا كان الشيخ "حسن طوبار" الذي كان زعيماً على إقليم المنزلة بالدقهلية وشيخاً لها، وكانت المنزلة من أكثر الأقاليم التي واجه الفرنسيون فيها مقاومة شعبية عنيفة، وكان محور هذه المقاومة هو الشيخ "حسن طوبار"..

كان "طوبار" واسع الثروة والنفوذ، محبوباً من سكان إقليمه من الصيادين، وكان له أسطول يزيد عن 600 مركب، وتقدره بعض المصادر الفرنسية بألف مركب، وجند الشيخ "حسن طوبار" هذا الأسطول كله بمن عليه من الرجال لمكافحة الفرنسيين ..

وزاد من مكانة الشيخ "حسن طوبار" تلك الثروة الطائلة التي كان يمتلكها، وكانت تقدر بملايين الفرنكات، إضافة لامتلاكه مساحات واسعة من الأراضي الزراعية، ومصانع لنسج القطن ومتاجر كثيرة، وكان إلى جانب ذلك ينتسب إلى أسرة عريقة، تداول أفرادها مشيخة المنزلة مئات السنين، ولهم نفوذ قوي هناك، ويذكر الجنرال "الوجييه" أنهم في كل جميع الاتجاهات التي مروا بها من المنصورة إلى المنزلة لم يسمعوا من الأهالي إلا الثناء على "طوبار"..

بدأ "حسن طوبار" مقاومة الفرنسيين منذ بداية الحملة تقريباً، فكان يذهب بنفسه إلى البلاد والقرى يحرّض أهلها على الحرب، ويطمئن على وسائل الدفاع لديهم، وجهز من ماله الخاص الأسطول البحري الذي حارب الفرنسيين في البحيرة، وأوشك أن يخرجهم من دمياط .

وكان الفرنسيون يحلمون بأسر هذا الزعيم ولكنهم لم يستطيعوا لمكانته عند قومه، فأرادوا أن يستميلوه إليهم فأرسلوا إليه الجنرال "فيال" ليلتقي به، فرفض "طوبار" مقابلته وقال إنه لا يريد أن يرى أحداً من الفرنسيين، كما امتنع عن قبول هدايا ثمينة أرسلها له "نابليون".

هنا أدرك "نابليون" أن "طوبار" لن يخضع إلا بالحرب، وأنه لن يكون له سلطان على بلاد هذه المنطقة، ولن تنتهي مقاومة أهلها وثوراتهم على

جنوده إلا بالقضاء عليه، فأمر قائد الحملة الفرنسية بتجهيز حملتين كبيرتين إحداهما برية والأخرى بحرية لمهاجمة المنزلة..

واستطاعت هذه الحملة القوية أن تخضع الزعيم الثائر، وأن تدخل المنزلة في 6 أكتوبر سنة 1798م، ولما رأى الفرنسيون قصور "حسن طوبار" بالمنزلة دهشوا من جمالها واتساعها، ولكنهم وجدوها خالية من سكانها، فقد استطاع "طوبار" أن يفر إلى الشام، وكذلك كانت المنزلة كلها خالية إلا من النساء والصبيان والعجزة ، وأراد قائد الحملة الجنرال "دوجا" أن يتخذ من أحد قصور "حسن طوبار" مقراً له، ولكنه لاحظ المكانة الممتازة التي يحفظها الناس له، فترك القصر واتخذ مقراً في مكان آخر..

هاجر "حسن طوبار" إلى غزة، وبدأ ينظم فيها أمر المقاومة من جديد، وعلم الفرنسيون في مصر أنه جهز جيشاً صغيراً من المجاهدين وأعد 50 سفينة لنقلهم إلى دمياط، ولكن هذه الحملة لم تتم، وسمح له "نابليون" بعد ذلك بالعودة إلى مصر ليأمن هجومه على دمياط وتحريضه لأهل بلده على الثورة، ولم يأذن "نابليون" بعودته إلى مصر إلا بشرط أن يبقى ابن الشيخ عنده في القاهرة، ويعود "حسن طوبار" إلى دمياط..

وعاش "طوبار" في دمياط فترة قصيرة، وهو الأمر الذي دعا الجنرال "كليبر" بعد أن أصبح قائدا عاما للحملة الفرنسية أن يوصي قائده في دمياط بتوخي الحذر وأن يراقب الشيخ "حسن طوبار" ولا يغفل عنه أبداً..

ولم يعمر "حسن طوبار" طويلاً بعد ذلك، فمات في 29 نوفمبر سنة 1800م، وقد قال عنه "نقولا الترك" في تاريخه الذي كتبه لتمجيد الغزو الفرنسي لمصر: "اشتهر هذا الشيخ المذكور بخبث النية ضد الفرنساوية"!

الشيخ "سليمان الجوسقي"..
الكفيف الذي قاد المقاومة !



ربما لولا ثورة القاهرة الأولى التي فجرها الشعب على المحتل الفرنسي لم نكن لنعرف شيئاً عن هذا الرجل..

فالشيخ "سليمان الجوسقي" حالة خاصة جداً من حالات البطولة، فقد كان رجلاً ضريراً، كان من الطبيعي أن يعيش على التسول أو قراءة بعض آيات القرآن الكريم في المقابر وترديد بعض الأدعية أمام البيوت وفي الشوارع لينال عنها حسنة تسد جوعه، لكنه صار شيخاً لطائفة العميان، وكان في هذه الفترة لكل طائفة من طوائف المجتمع شيخ ينظم أمورها، وهو الدور الذي تقوم به النقابات الآن، وقاد الشيخ "الجوسقي" الطائفة

بحسم وقوة، وكانت لديه بعض المهارات الاقتصادية التي استطاع أن يكون بها ثروة له ولأتباعه من العميان، فكان يشتري الغلال المعطلة التي لا يقبل على شرائها أحد لتوفرها، ثم يبيعها حين يشتد الغلاء، ويبدو أنه قد حقق من ذلك ثروة طائلة حيث إنه كما يروي "الجبرتي" قد تزوج الكثير من النساء والفتيات الجميلات وكان يقرض الأمراء والأكابر مبالغ ضخمة من الأموال كخدمات ومجاملات قد يحتاج إلى ردها منهم بعد ذلك.

وكما يصفه "الجبرتي": "صار من الأعيان المشار إليهم في المجالس تُخشى سطوته وتُسمع كلمته ويقال أمر الشيخ بكذا وكذا" وكان ذلك تطوراً كبيراً في حياته ووضعه الاجتماعي، ولنتأمل حاله قبل ذلك بعد واقعة حدثت له مع شيخ الأزهر "عبد الرحمن العريشي"، فقد حدث أن غضب الشيخ "العريشي" على "الجوسقي" لسبب لم يروه لنا "الجبرتي"، فما كان من شيخ الأزهر إلا أن "أرسل إليه من أحضره موثقاً مكشوف الرأس مضروباً بالنعالات على دماغه وقفاه أمام الناس من بيته إلى بيت الشيخ العريشي"

شخص يتحول من الضرب بالأحذية على قفاه إلى واحد من وجهاء المجتمع وشيخ طائفة عبارة عن جيش من العميان في أنحاء مصر كلها يأتمرون بأمره، كان من المنتظر إذن ألا يدخل نفسه في أية معارك سياسية وأن يحافظ على وضعه الاجتماعي المتميز الذي حققه، ولم يكن أحد ليحاسبه أو ليلومه لو فعل ذلك، فلم يكن عالماً أزهرياً ينتظر منه الناس أن يفتيهم أو يقودهم، ولم يكن أحد الأمراء أو البكوات من الذين من واجبهم الدفاع عن أمن مصر..

لم يكن الشيخ "الجوسقي" سوى شخص عاجز وفوق ذلك من الذين

يمكن أن نطلق عليهم محدثي النعمة، ومع ذلك حينما جاء "نابليون" إلى مصر نسي "الجوسقي" كل شيء إلا أن "نابليون" وجيشه يحتلون مصر، فانضم إلى المقاومة بل وصار واحداً من الستة الذين تزعموا ثورة القاهرة الأولى .

وبعد انتهاء ثورة القاهرة الأولى، جرت حملة اعتقالات واسعة لكل من شارك في الثورة، وكان على رأسهم الشيخ "سليمان الجوسقي" الذي تم القبض عليه وحبسه في بيت "مصطفى أغا" الذي عينه الفرنسيون محافظاً للقاهرة، ثم نقله الفرنسيون هو وعدد من الثوار إلى القلعة بعد أن عرّوهم من الثياب زيادة في التنكيل بهم، وفي القلعة قتلوا الشيخ "الجوسقي" ورموا بجثته بعد عدة أيام من فوق أسوار القلعة، ولم يعرف له قبر كما ذكر "الجبرتي".

وظلت سيرة الشيخ "سليمان الجوسقي" مجهولة إلا لعدد قليل من الباحثين إلى أن خلّد ذكره الكاتب المسرحي الكبير "علي أحمد باكثير" وجعله بطلاً لمسرحيته الشهيرة: "الدودة والثعبان"..

مصر.. لم تكن الهدف الوحيد!



لم تكن مصر هي هدف الحملة الفرنسية الوحيد كما حاولت أن تقنعنا مناهجنا المدرسية ، كان هدف حملة "نابليون" في الأساس هو ضم الشرق كله إلى الإمبراطورية الفرنسية، الحملة الفرنسية كلها كان اسمها "حملة الشرق"، ولم تكن مصر في نظر الفرنسيين سوى البداية، ولكن القدر شاء أن يجعل في مصر نهاية الحملة أيضاً كما كانت البداية فيها..

تحكي لنا أوراق التاريخ أن "نابليون" بعد احتلاله لمصر قد جهز حملة كبيرة لغزو الشام، حيث كان والي عكا "أحمد باشا الجزار" يجهز جيشاً كبيراً لنصرة مصر، فخرج "نابليون" بجيش كبير في 10 فبراير 1799م، والهدف كان غزو سوريا.. خط الدفاع الأول عن مصر .

واحتلت قوات "نابليون" خان يونس ثم غزة دون مقاومة، فاحتلوا على

التتابع الرملة واللد حتى وصلوا إلى يافا (تل أبيب حالياً)، وهناك دارت معركة عنيفة واستولى الفرنسيون عليها، وارتكبوا فيها فظائع ومذابح وحشية، وكانت قمة التصرفات اللا إنسانية والبعيدة كل البعد عن شرف الجندية أنه في آخر مراحل القتال عرض الجنود العثمانيون المتحصنون بالمدينة التسليم للفرنسيين بشرط أن يقوم الفرنسيون بتأمينهم على أرواحهم، وكان عددهم يبلغ 3 آلاف مقاتل، وبالفعل وافق الفرنسيون على ذلك وتم التسليم، ولكن "نابليون" نقض العهد وساقهم جميعاً إلى ساحل البحر وأمر بإعدامهم جميعاً رمياً بالرصاص بحجة عدم تمكنه من إطعامهم وحراستهم، وقد أثارت هذه الخيانة النفوس العثمانية والعربية، مما جعل باقي الحاميات العثمانية تستميت في الدفاع عن مناطقها، وكأن الله أراد الانتقام من الجيش الفرنسي في صورة انتشار الأمراض بين صفوف الجنود الفرنسيين بشكل وبائي كنتيجة لكثرة الجثث والدماء بعد مذبحة يافا.. وكانت خسائر الفرنسيين من الأمراض الوبائية تفوق بكثير عدد قتلى الحرب، ولم يكتب للفرنسيين بعد ذلك أي نصر أو نجاح حيث استمات المدافعون العثمانيون في قتالهم..

وأخيراً وصل جيش "نابليون" إلى أسوار عكا، - و عكا بالمناسبة هي إحدى المدن الفلسطينية الواقعة تحت الاحتلال الإسرائيلي الآن - ، وبدأ الفرنسيون حصار عكا وضربها، ودارت حول أسوارها معركة طاحنة استمات فيها العثمانيون في الدفاع بقيادة "أحمد باشا الجزار" وقاومت عكا مقاومة عنيفة، وبعد شهور من الحصار، اضطر الفرنسيون للارتداد عنها وانتهت الحملة الفرنسية بالفشل والانسحاب إلى مصر دون أن تحقق أي مكاسب، الأمر الذي قضى على أحلام نابليون في إنشاء دولة شرقية عظيمة، ولقد روي عنه أنه قد قال عن هزيمته أمام أسوار عكا: "لم أكن أعلم عندما أقلعت

بي السفينة إلى مصر إذا كان وداعي لفرنسا سيكون أبدياً، لكني ما شككت لحظة في أنها ستدعوني يوماً ما إليها، على أن آمالي قد اتجهت إلى الشرق واستهوتني فتوحاته العظيمة وصرفتني عن التفكير في أوربا، ولكن هذه الآمال والأحلام قد دفنت تحت أسوار عكا"

لم تقتصر محاولات مساعدة مصر على مستوى الدول فحسب، بل تعدى الأمر إلى مستوى الأفراد أيضاً، فتدفق إلى مصر آلاف المتطوعين العرب والمسلمين من الشرق والغرب، فمن بلاد المغرب العربي قطع آلاف من الحجاج المغاربة رحلة الحج ، وكان الحجاج المغاربة يمرون بمصر في طريقهم للحجاز، وشاركوا في القتال ضد المحتل الفرنسي..

ومن أرض الحجاز بشبه الجزيرة العربية، عبر الآلاف من المقاتلين العرب البحر الأحمر إلى ميناء القصير بمصر، وتصادف أنه حين وصلت أول قوة عربية كان "بونابرت" قد أرسل لتوه أسطولاً صغيراً من السويس ليحتل القصير، ووصل أسطول المقاتلين العرب في نفس الوقت وضرب الأسطول الفرنسي ضرباً شديداً، وأجبره على العودة إلى السويس ثانية، واختتم قائد الأسطول الفرنسي تقريره لـ"بونابرت" راجياً ألا يرسله مستقبلاً في مهمة مستحيلة كهذه!!

ويمكن أن نتخيل ما كان يمثله هؤلاء المقاتلون من رعب للفرنسيين عندما نقرأ ما كتبه "نابليون" عنهم في مذكراته:"إن ضراوتهم ترجع لأنهم معرضون دائماً لرمال الصحراء الساخنة، وللشمس المحرقة، ومحرومون من المياه، ولا رحمة في قلوبهم(!!)، إنهم صورة مجسمة للرجل المتوحش وكأنهم حقاً من سلالة أسلافهم الذين فتحوا نصف العالم قبل 11 قرناً من الزمان، واليوم يقاتلون الفرنسيين بنفس الشجاعة والإيمان"

"سليمان الحلبي".. معنى أن تكون عربيا !



لم يكن "سليمان الحلبي" فارساً أو مقاتلاً، ولم يرو لنا التاريخ أنه كان عملاقاً ضخم الجثة عريض المنكبين، لم يكن "سليمان" سوى شاب عربي بسيط لا يختلف عن أي شاب آخر، وكعادة أغلب الشباب حينها، سافر "سليمان" إلى مصر حيث قضى ثلاث سنوات تردد فيها على الأزهر وحفظ القرآن، وعاد بعدها إلى مدينته حلب حيث يعيش، وإن لم تغب مصر وأهلها أبداً عن قلبه وتفكيره .

وفي مطلع سنة 1800م، وبعد أن أدى "سليمان" فريضة الحج سافر إلى القدس ليزور المسجد الأقصى، وفي القدس قابل حاكم المدينة "أحمد أغا"، وشكى إليه "سليمان" قسوة زميله حاكم حلب الذي فرض ضرائب

كبيرة على تجار حلب – ومن بينهم والد "سليمان"– مما أصابهم بالركود، فأبدى حاكم القدس استعداده لأن يتدخل ويرفع عن والد "سليمان" كل الضرائب بشرط واحد فقط، هو أن يقوم "سليمان" بقتل قائد الحملة الفرنسية في مصر.. الجنرال "كليبر"..

والحقيقة أن "سليمان الحلبي" لم يوافق على قتل "كليبر" من أجل رفع الضرائب عن والده، فاغتيال "كليبر" ليس أمراً بسيطاً، فهو بالضبط مثل أن يفكر أحد الأشخاص حالياً في اغتيال الرئيس الأمريكي، و"سليمان" كان يعرف تماماً أنه لن يرجع حياً بعد تنفيذ عملية الاغتيال..

والواقع أن "سليمان" وجد في اقتراح حاكم القدس فرصة لأن يشارك في الجهاد ومقاومة العدو الفرنسي، خاصة وأن "سليمان" كان قد سمع كثيراً عن الفظائع التي ارتكبها الفرنسيون في مصر، وعن مذابح "نابليون" في فلسطين ومدن الشام، وقبل كل هذا تدنيس الفرنسيين للجامع الأزهر بخيولهم، و"سليمان" كان في النهاية واحداً من أبناء الأزهر..

ومن القدس سافر "سليمان الحلبي" إلى غزة حيث اشترى خنجراً من هناك، ثم التحق بأول قافلة مسافرة إلى مصر، وبدأ العد التنازلي ..

عندما وصل "سليمان" إلى القاهرة توجه على الفور إلى الجامع الأزهر حيث التقى بأربعة من أصدقائه يدرسون به، وصارحهم "سليمان" بحقيقة المهمة التي جاء من أجلها، فاتهموه بالجنون، فلا يمكن تنفيذ هذه المهمة و"كليبر" بين حرسه وجنوده، ويبدو أنهم اعتبروها إحدى شطحات الشباب مرّت بذهنه، لكنهم على أية حال وفروا له الإقامة بالأزهر معهم، رغم أن

التعليمات الفرنسية كانت تقتضي ألا يدخل أي غريب إلى الأزهر دون أن يتم إبلاغهم عنه، ولكنهم لم يبلغوا السلطات الفرنسية عن وصول سليمان، وفي اليوم الـ31 لـ"سليمان الحلبي" في القاهرة، قرر أن ينفذ مهمته..

كان ذلك يوم السبت 14 يونيو سنة 1800م، صحا من نومه وصارح أصدقاءه الأربعة بأنه قرر اغتيال "كليبر" اليوم، فحاولوا منعه لأنه من المستحيل أن ينجح، لكنه تركهم وذهب إلى قصر الألفي بالأزبكية وهو المقر الرسمي لـ"كليبر"، كان "كليبر" قد عبر النيل إلى الروضة ليستعرض الفيلق اليوناني الذي تم تشكيله مؤخراً ليعاون جيش الحملة، وتوجه بعدها إلى قصر الأزبكية، وكان "سليمان" قد سبقه إلى هناك ونجح في التسلل إلى القصر..

كان القصر قد تعرض لهجمات الثوار بالمدافع والقنابل، واحترقت أجزاء منه وبعض الأسقف، وعهد "كليبر" بمهمة إصلاح القصر إلى المهندس "بروتان"، فقد أراد القائد العام أن يحول القصر إلى قلعة عسكرية، بدأ "كليبر" يتفقد العمل ويصاحبه "بروتان"، و"سليمان" يتبعه من غرفة إلى غرفة، وانتبه إليه الجميع، وظنوه واحداً من الفعلة الذين كانوا يملأون القصر ويقومون بحمل الأتربة ونقلها من الغرف، وكان على "كليبر" أن ينهي جولته سريعاً ليعبر حديقة القصر إلى المنزل المجاور حيث يسكن الجنرال "داماس" ليكون ضيف مأدبة الغذاء، وفي حديقة القصر، لاحظ أفراد الحاشية أن الشاب ذا العمامة الخضراء مازال يتبع موكب "كليبر"، فنهره حرس "كليبر"، فاختبأ "سليمان" بجوار ساقية في حديقة القصر، وبعد أن تناول "كليبر" الغذاء عند "داماس"، انطلق وحده دون حراسة

ليعود ثانية إلى قصر الأزبكية ليتابع الإصلاحات، ولم يكن معه إلا المهندس "بروتان" الذي تأخر قليلاً عن "كليبر" لينادي على الحرس، وكانت تلك هي اللحظة التي انتظرها "سليمان"، فاندفع من جوار الساقية مسرعاً تجاه "كليبر"، الذي تصور أن "سليمان" متسولاً يريد صدقة، فقال له "كليبر" بالعربية: "مفيش مفيش" ، ولكن "سليمان" اقترب من "كليبر" ومد له يده اليسرى وكأنه يود تقبيل يد الجنرال، وأرضى ذلك غرور "كليبر" ومد له يده اليمنى، فجذبه "سليمان" بقوة، وفي لحظة واحدة أخرج "سليمان" الخنجر وطعن "كليبر" أربع طعنات، سقط "كليبر" بعد أول طعنة، وصرخ فانتبه "بروتان"، فاندفع نحو "سليمان" الذي انهال على "بروتان" طعناً، وبسرعة غادر "سليمان" القصر، واختبأ في حديقة منزل مجاور، مرّت 6 دقائق كاملة قبل أن ينتبه الجنود في القصر لمقتل "كليبر"، وأخيراً اندفع اثنان من الجنود إلى حيث يرقد القائد غارقاً في دمائه، فأشار بيده وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة إلى الجهة التي هرب إليها "سليمان"، فظلا يبحثان عنه إلى أن قبضا عليه بعد ساعتين..

وبمجرد أن ذاع الخبر وعُرف ما جرى لـ"كليبر" حتى دقت طبول الحرب في كل المعسكرات الفرنسية، وتصوروا أن اغتيال "كليبر" بداية لثورة جديدة يقوم بها أهل القاهرة، وهكذا استعدوا بأسلحتهم وبعثوا بجواسيسهم ليجمعوا المعلومات، فلم يجدوا شيئاً مريباً، وصمموا على الانتقام، وصمموا على " قتل أهل مصر كلهم"(!!)، أما أهل القاهرة فلم يكن لديهم أي تفسير لما جرى، وحدث اضطراب بينهم، يقول "الجبرتي": "وقعت هوجة عظيمة بين الناس، وأكثرهم لا يدري حقيقة الحال"، أما الفرنسيون فقد خرجوا إلى الشوارع يقتلون كل من قابلهم في الشوارع من

كبار أو صغار، هدأت الأمور قليلاً بعد القبض على "سليمان"، وتراجع الفرنسيون عما كانوا قد قرروه من إبادة المصريين جميعاً، حين تيقنوا ألا علاقة لهم بالحادث، ترى كم مصري تم ذبحه خلال الساعتين اللتين انقضتا في البحث عن "سليمان الحلبي" لمجرد تصور خاطئ لجنود الحملة؟! ، كما يتساءل "حلمي النمنم" في كتابه "المصريون و حملة بونابرت" ..

لم يدل "سليمان الحلبي" باعترافات كثيرة أمام المحققين، فلم يكن لديه سوى تفاصيل رحلته إلى مصر، وعن دوافع اغتياله لـ"كليبر"، فلم يقل أكثر من أنه أراد الجهاد في سبيل الله بقتل كبير الفرنسيين في مصر، وصدر أمر بالقبض على أصدقائه الأربعة أيضاً، ثم شكلت محاكمة صورية، أدين فيها المتهمون جميعاً، وحكم عليهم بالإعدام، فتقرر أن تحرق يد "سليمان" اليمنى التي قتلت "كليبر"، ثم يخوزق حتى يموت، وتترك جثته على الخازوق حتى تأكله الطيور، وأن يقطع عنق الأصدقاء الأربعة باعتبارهم شركاء لـ"سليمان"؛ حيث لم يمنعوه عما أراد، ولم يبلغوا السلطات الفرنسية عنه، وأن تحرق أجسادهم بعد ذلك، على أن يتم التنفيذ أمام "سليمان" قبل تنفيذ الحكم فيه، وتقرر أن يتم تنفيذ الأحكام فوق "تل العقارب" الذي يقع اليوم بالقرب من منطقة زينهم .

كانت محاكمة "سليمان" تنافي تماماً مبادئ الحرية والإخاء والمساواة، لقد استغرقت المحاكمة يومين فقط، فقد وقعت عملية الاغتيال في يوم السبت 14 يونيو 1800م، وانتهى التحقيق في اليوم نفسه، وبدأت المحاكمة يوم الأحد وصدر الحكم يوم الإثنين 16 يونيو، وتم التنفيذ يوم 17 يونيو، وهذا يدل على أن المحاكمة كانت صورية ليس أكثر، فلم تتح

للمتهمين فرصة الدفاع عن أنفسهم، وحين صدر الحكم بالإعدام وبتلك الطرق البشعة، إذا بالجنرالات يزعمون أنهم سينفذون الإعدام طبقاً لعادات البلاد ! ، ولا ندري لماذا قرر الفرنسيون احترام العادات المصرية في هذه القضية بالذات!

والغريب أن "عبد الرحمن الجبرتي" قد أبدى إعجابه وتقديره بالفرنسيين لمحاكمتهم "سليمان الحلبي" بدلاً من قتله على الفور (!!)، فيقول إنه كان ينوي عدم الكلام عن واقعة اغتيال "كليبر" لولا "الحكومة (المحاكمة) ولما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكّمون العقل ولا يتدينون بدين وكيف وقد تجارى (تجرأ) على كبيرهم ويعسوبهم رجل آفاقي أهوج وغدره وقبضوا عليه وقرروه ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الإقرار بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مضمخة بدم ساري عسكرهم وأميرهم بل رتبوا حكومة ومحاكمة وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفرادهم ومجتمعين ثم نفذوا الحكومة فيهم بما اقتضاه التحكيم بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدّعون الإسلام ويزعمون أنهم مجاهدون وقتلهم الأنفس وتجاريهم على هدم البنية الإنسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية"

وعندما رحلت الحملة الفرنسية عن مصر بعد ذلك اصطحبت معها رفات "سليمان الحلبي"، ومما يدعو للأسى حقاً أن يعرض هيكله العظمي اليوم في متحف حديقة الحيوانات والنباتات، بينما تعرض جمجمته في متحف الإنسان بباريس وتحتها عبارة تقول: "جمجمة مجرم: سليمان الحلبي".

"مولاي محمد المهدي"..
الليبي الذي قاتل من أجل مصر!



لم يحكِ لنا التاريخ شيئاً عن تفاصيل حياة هذا الرجل، كل ما نعرفه أنه قدم من درنة بليبيا لمصر خصيصاً لمحاربة الفرنسيين، أما من هو بالضبط أو ما دوافعه لأن يترك وطنه وحياته المستقرة ويقطع الصحراء الشاسعة حتى يصل إلى مصر، فهذا ما لم تخبرنا كتب التاريخ عنه، وكأنه من الطبيعي تماماً أن يهب الجميع من كل الأقطار العربية للدفاع عن أحد أجزاء الجسد العربي الواحد إذا ما تعرض لعدوان ما، بدأ "مولاي محمد" يدعو الناس إلى قتال الفرنسيين، وأقبل عليه الناس أفواجاً فضم إليه رجال القبائل العربية، وبسرعة مذهلة

تجاوبت معه نفوس المصريين الساخطة حتى بلغت مجموع قواته في فترة ما 15000 مقاتل مشاه و5000 من الفرسان المسلحين، وفي 24 أبريل 1799 هاجم "مولاي محمد" بقواته الحامية الفرنسية في دمنهور وقتل رجال الحامية الفرنسية جميعهم، واحتل دمنهور، وواصل انتصاراته حتى وصل إلى رشيد وحقق نصراً كبيراً، وكان لهذه الانتصارات على جيوش الفرنسيين أثر كبير في رفع معنويات عامة الشعب المصري بعد انتشار صداها، حتى فكر أمراء المماليك الهاربون في الصعيد وغيرها في الانضمام إلى قوات "المهدي"..

جهز الفرنسيون قوات كثيرة بأقوى الأسلحة للانتقام من "المهدي"، وسارت القوة الفرنسية من الإسكندرية في اتجاه الرحمانية (التي تقع بجوار دمنهور) لتنضم إلى حامية الرحمانية الفرنسية استعداداً للهجوم المركز على دمنهور، ولكن قوات "المهدي" التقت بالجيش الفرنسي القادم من الإسكندرية قبل أن تصل إلى الرحمانية ودارت معركة رهيبة انتهت بانسحاب القوات الفرنسية المهزومة إلى الإسكندرية..

أرسل الفرنسيون إمدادات كبيرة إلى الرحمانية، وأصبحت قواتهم تشكل قوة ضاربة رهيبة، وتقدموا لقتال "المهدي" الذي قابلهم عند سنهور بالبحيرة بالقرب من دمنهور ودارت معركة من أشد المعارك هناك، وأظهر أتباع "المهدي" في هذه المعركة بسالة فائقة واستهانة بالموت في سبيل الله وشجاعة لا نظير لها بشهادة الفرنسيين أنفسهم، كل ذلك رغم أن مدافع الفرنسيين الحديثة كانت تحصد صفوفهم حصداً، ومع ذلك ورغم خسائر رجال "المهدي" في الأرواح التي بلغت 2000 جندي، فإن باقي قواته اقتحمت صفوف الفرنسيين، وكان النصر في النهاية حليف قوات "مولاي محمد

المهدي"، وقرب الغروب ارتد الفرنسيون إلى الرحمانية، وأعاد "المهدي" حشد قواته وأعاد تسليحها وتدعيمها تمهيداً لاستئناف الجهاد، فقام بمهاجمة معسكر ودفاعات الفرنسيين في الرحمانية ولكنه اضطر إزاء مناعة المواقع الفرنسية إلى الارتداد إلى دمنهور واتخاذها معسكراً وقاعدة له..

حشد الفرنسيون معظم قواتهم المبعثرة في أنحاء الدلتا لتكون معركتهم المقبلة مع "المهدي" حاسمة في دمنهور قبل أن يستفحل أمره أكثر من ذلك نظراً لأن قواته أصبحت تشكل خطورة على الوجود الفرنسي في مصر كلها، وقادرة على إحداث الهزائم المتتالية للجيش الفرنسي، وتمكن الفرنسيون بهذا الحشد الكبير ومع استخدام أحدث الأسلحة من الاستيلاء على دمنهور معقل قوات "المهدي" في منتصف مايو 1799م، وارتكب الفرنسيون في دمنهور بعد سقوطها أشد أنواع التنكيل ومارسوا الذبح والقتل والكي بالنار للرجال والنساء والأطفال والشيوخ من أهل دمنهور، وكذلك هدمت القوات الفرنسية أغلب مباني دمنهور انتقاماً من هزائمهم السابقة، وجعلوها ركاماً من الأحجار السوداء التي اختلطت بها أشلاء الجثث ودماء القتلى، وأشاع الفرنسيون أن "المهدي" قد قتل، والحقيقة أنه لجأ إلى الصعيد بعد مطاردة الفرنسيين له ثم عاد إلى القاهرة أثناء ثورة القاهرة الثانية وكان أحد المشاركين فيها، وبعد إخماد ثورة القاهرة الثانية انضم "مولاي محمد" إلى جيش الدولة العثمانية، وشارك في سنة 1800 في الحملة العثمانية التي جاءت لتحرير مصر..

وهكذا كان "مولاي محمد المهدي" الثائر العربي الذي لا نعرف عنه شيئاً سوى أنه سارع لتلبية نداء الجهاد حينما بلغه..

زرع "سونيني" الفتنة..
فحصد الفرنسيون احتلالا!



الحقيقة - التي قد لا يعرفها الكثيرون - أن الحملة الفرنسية على مصر لم تأتِ من فراغ، بل سبقها تحضير وتخطيط طويل جداً، حتى إن "نابليون" كان لديه خرائط مفصلة عن مصر كلها ومعلومات دقيقة عن عادات وتقاليد وسلوكيات أهلها، كل هذه المعلومات جمعها له قناصل فرنسا في مصر والجواسيس الذين كانوا يدخلون إلى مصر بلا قيود على أنهم تجار، كل هذا والولاة العثمانيون حكام مصر وقيادات المماليك في (سابع نومة) ولا يدركون الخطر الذي يقترب منهم..

كانت أهم معلومة رأت فرنسا أن تستغلها هي أن الشعب المصري يضم

مسلمين وأقباطاً، فكلفت فرنسا عالماً من علمائها اسمه "سونيني" بالسفر إلى مصر سنة 1768م (أي قبل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر بـ30 عاماً)، وكانت مهمته الوحيدة هي غرس بذور التفرقة بين الأقباط والمسلمين في مصر (يجب أن نذكر أيضاً أن تعداد مصر حينها كان لا يتجاوز ثلاثة ملايين نسمة)، وبالفعل نجح "سونيني" في مهمته لدرجة أنه عندما اقترب الجيش الفرنسي بقيادة "نابليون" من القاهرة كادت تحدث فتنة طائفية عندما تحرش الأهالي المسلمون بالأقباط، لولا تدخل أمراء المماليك لحماية الأقباط..

الواقع أن "نابليون" قد نجح في أن يصبغ الحملة بالطابع الديني في بيانه الأول للمصريين، فقد ركز في هذا البيان على ما أسماه حبه للنبي - صلى الله عليه وسلم- والقرآن الكريم، وتحدث أيضاً عن كراهيته للمسيحية وتكسيره للصلبان وتخريبه لكرسي البابوية في روما!! ولم يصدقه معظم المصريين في شيء مما قاله، فلو صح أنه يحترم الإسلام، لوجب عليه أن يحترم المسيحية..

وحينما بدأ "نابليون" في فرض غرامات مالية ضخمة على المصريين، خاصة بعد تحطيم أسطوله في "أبو قير"، شملت الغرامات جميع من بمصر بلا تفرقة، أو على حسب تعبير "الجبرتي": "التجار المسلمين والنصارى والقبط والشوام وتجار الإفرنج"، ولأن الأقباط يعملون في المهن المالية ويعرفون حقيقة أملاك الأفراد فقد استغل الفرنسيون الأقباط في جمع الأموال التي قرروها، وقد أثر هذا على صورة هؤلاء الأقباط أمام الأهالي..

كانت مهمة جمع الأموال طوال العصور الإسلامية متروكة للأقباط،

وكان عليهم أن يطلبوا الأموال فقط، وكان إلزام وإرغام الأهالي على الدفع متروكاً للشرطة والمماليك، ولكن الجديد الذي قام به الفرنسيون لتفريق طوائف الشعب المصري، هو إضافة مهمة المماليك إليهم، بحيث يصبح الأقباط هم من يلزمون المصريين بدفع أموال الضرائب، وهنا بدأت بذور الفتنة الطائفية في الظهور..

عقب الهزيمة الساحقة للجيش العثماني الضخم في عين شمس أمام جيش "كليبر" في بداية ثورة القاهرة الثانية، اندفع عدد من العثمانيين تجاه القاهرة، وتصور أهلها أن الفرنسيين قد هزموا، ولما توغل هؤلاء العثمانيون داخل القاهرة صاح أحد قادتهم في جموع الأهالي: "اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم"، وكانت هذه الصيحة نذير الشؤم الذي بدأ الفتنة، فقد تلقفها الأهالي واندفعوا كما يقول "الجبرتي" "يقتلون من يصادفهم من نصارى القبط والشوام وغيرهم"، وإزاء هذه العمليات لم يقف الأقباط - بطبيعة الحال- مكتوفي الأيدي في انتظار قدرهم، فقرروا أن يدافعوا عن أنفسهم ويردوا الاعتداء، فحملوا السلاح، وتحولت المسألة إلى ما يشبه الحرب الأهلية في قلب القاهرة، عقب انتهاء الثورة سوف يعترف الجنرال "كليبر" للعلماء ولكبار المشايخ بأنه هو من أمد الأقباط بالسلاح ليستعملوه ضد المصريين إذا اقتضى الأمر..

إذاً فقد حدثت عملية تخريب منظم للجتمع المصري تولاها الفرنسيون والعثمانيون، الأول يزرع الشك داخل الأقباط والمسيحيين ضد المسلمين، فقد سلح الفرنسيون الأقباط لقتال المسلمين في أي لحظة، وقبل ذلك ملأوا نفوسهم بالشك والارتياب من المسلمين، أما العثمانيون فقد حرضوا

المسلمين على المسيحيين، وبين الفرنسيين والعثمانيين كان من الممكن أن تصل الأمور إلى أسوأ من ذلك بكثير، لولا أن الشعب مسلمين وأقباطا استطاع احتواء الأزمة، ولم تستمر هذه الفتنة ـ كما يذكر المؤرخون- أكثر من يوم وليلة وسارت الثورة بعدها في طريقها ضد المحتل، واستمرت لأكثر من شهر قدم خلالها المصريون صورة قوية للمقاومة والبسالة وتحملوا ضراوة "كليبر" وتدميره للقاهرة، وكان من الذين شاركوا في النفقات المالية للثورة عدد من أعيان الأقباط مثل المعلم "جرجس الجوهري" "وملطي" و"فليتوس"، رغم أن هذا التصرف كان كفيلاً بأن يثير الفرنسيين ضدهم ويضعهم في خانة أعداء الجمهورية الفرنسية، والمعنى الواضح هو أن المصريين قد استطاعوا تجاوز الفتنة، وأدرك الجميع أنهم يعيشون في وطن واحد وأن عدوهم واحد..

"مراد بك".. تشرب من مياه النيل.. فخان مصر والنيل!



"كان يغلب على طبع مراد الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط في الإقدام مع عدم الشجاعة.. وكان من أعظم الأسباب في خراب الأقاليم المصرية"

"عبد الرحمن الجبرتي"

حياة هذا الرجل سلسلة لا تنتهي من الخيانات، لم يخلص أبداً طوال

عمره لوطن أو دين أو مبدأ، انتماؤه الوحيد كان لمصلحته هو وحسب، بدأ "مراد" حياته كأحد مماليك "علي بك الكبير"، الحاكم المصري صاحب أول محاولة في العصر الحديث للاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية، وكان "مراد" من قادة جيوش "علي بك" التي ذهبت إلى الشام لضمها إلى الدولة المصرية، ولكنه خان سيده، وقاتل "علي بك الكبير" إلى أن مات، وآل بعدها بعدة سنوات إلى "مراد" منصب شيخ البلد، وكان شيخ البلد حينها هو الحاكم الفعلي لمصر..

وعندما وصلت الحملة الفرنسية إلى مصر، اجتمع البكوات المماليك والمشايخ في القاهرة، وانتهى الاجتماع بالاتفاق على أن يخرج "مراد بك" لقتال الفرنسيين، وبالفعل خرج "مراد بك" بجيشه إلى إمبابة لمحاربة الفرنسيين، وكانت الهزيمة الساحقة التي هرب بعدها "مراد بك" وبقايا جيشه إلى الصعيد، أرسل "نابليون" حملة إلى الصعيد لمطاردة "مراد" وإخضاع الصعيد بقيادة الجنرال "ديزيه"، ثم أرسل إليه أيضاً قنصل النمسا في الإسكندرية "شارل روزنتي" برسالة مضمونها أن يقدم "مراد" الطاعة إلى الفرنسيين، مقابل ذلك يجعله الفرنسيون حاكماً على الصعيد، رفض "مراد" هذا العرض بحسم وقال لـ"روزنتي": "ارجع وقل لـ"نابليون" أن يجمع عساكره ويرجع إلى الإسكندرية ويأخذ منا مصروف عسكره، ويكسب دم أحبائه ويريحنا من كفاحه وجلاده" !

كان غريبا جدا أن يتحدث "مراد" بهذه الثقة "الفظيعة" التي تعكس استخفافا بالغا بالخصم.. ذات الخصم الذي هزم "مراد" شر هزيمة في إمبابة وجعله يفر بجيشه إلى الصعيد، وبطبيعة الحال كان الرد المستفز

بداية لحملة مطاردة طويلة بين "ديزيه" و"مراد".

انطلق "مراد" يجوب الصعيد وخلفه "ديزيه" يتبعه، كان "مراد" يسبق "ديزيه" بيوم أو ليلة، ويبدو أن "مراد" كان متيقناً من أنه لن يتمكن من مواجهة قوات الفرنسيين، خاصة أنهم يملكون المدافع ويفتقدها هو، لذا اتبع معهم خطة الفرار، والتي تؤدي إلى إنهاك خصمه في مطاردته عبر صحراء شاسعة وبلدان لا يعرف "ديزيه" عنها شيئاً، وفي المطاردة يفقد الفرنسيون الزاد والمنونة والسلاح أيضاً، وحققت هذه الخطة بعض أهدافها، لكن الذي تحمل ثمن وتكلفة تلك الخطة هم المصريون أبناء الصعيد، فلم يكن "مراد" ينزل بمدينة حتى يلزم أهلها بدفع (الميري) أي الضرائب التي كان يحصلها من الأهالي بعنف، ولا يهم إن كان الأهالي قد دفعوا نفس الضريبة من قبل للدولة، ثم ما يكاد يتركها، حتى يتبعه "ديزيه" لينهب هو الآخر، فقد كان بحاجة إلى المال والطعام، فكان جنوده يأخذون الحبوب التي لدى الفلاحين ويذبحون حيواناتهم وطيورهم كطعام لهم، ثم يخلعون أسقف البيوت وأبوابها ونوافذها للتدفئة بها في ليل الشتاء، ويفرضون الضرائب الباهظة من جديد على الأهالي .

و لكن "مراد" لم يكن معتاداً على هذا النوع من المعيشة، بعيداً عن قصوره وجواريه، وحياة الرفاهية التي يعيشها، فبدأت المراسلات بين "كليبر" و"مراد بك"، وانتهت بأن اتفقا أن يحكم "مراد بك" الصعيد باسم الجمهورية الفرنسية على أن يمنع أي قوات أو مقاتلين من أن يأتوا إلى القاهرة من الصعيد لمحاربة الفرنسيين، وأن يدفع "مراد" لفرنسا الخراج الذي كان يدفعه من قبل للدولة العثمانية!!

وكانت قمة خيانة "مراد بك" بحق أثناء ثورة القاهرة الثانية، حيث شارك "مراد" في عمليات القتال ضد المصريين، ومنع عن القاهرة الإمدادات الغذائية التي كانت ترد إليها من الصعيد ومن الجيزة، فيذكر أنه قد صادر شحنة من الأغذية والخراف تقدر بـ4000 رأس كانت قادمة من الصعيد لنجدة أهل القاهرة، وقدمها هدية إلى "كليبر" والجيش الفرنسي، وكادت القاهرة تسقط في مجاعة حقيقية..

لم يكتفِ "مراد" بذلك، بل سارع أيضاً بإرسال الهدايا والإمدادات إلى جيش "كليبر" الذي يحاصر القاهرة، وسعى لأن يسحب المماليك الشرفاء الذين يقاتلون الفرنسيين داخل القاهرة إلى جواره وينضمون معه إلى معاهدته وينهي بذلك ثورة القاهرة، ولما فشل في ذلك، كان هو الذي قدم النصيحة لـ"كليبر" بأن يحرق القاهرة على من فيها، وهو الذي أمد الفرنسيين بالبارود والمواد الحارقة التي استخدمت بالفعل في تدمير أحياء القاهرة، وكان "مراد" قد اشترى هذا البارود من قبل بأموال المصريين التي جمعها منهم للدفاع عن مصر ضد أي خطر يمكن أن تتعرض له!! ولولا انضمام "مراد بك" إلى "كليبر" لما انتهت ثورة القاهرة الثانية بهذه الهزيمة الساحقة للمصريين وتدمير القاهرة، انطلق "مراد" بعد ذلك إلى الصعيد، واستقر في جرجا، وكانت رسائل قادة الحملة إلى "مينو" (الذي تولى قيادة الحملة الفرنسية بعد مقتل كليبر) تؤكد إخلاص "مراد" وولاءه الشديد للفرنسيين!!

لم يكن "مراد" هادئاً في الصعيد، فقد كان يتابع الموقف في القاهرة والإسكندرية بدقة شديدة، وبدأ يرى بعينيه نهاية الحملة، واقتنع بضعف

الفرنسيين أمام الإنجليز، ولأنه لا يستطيع أن يعيش بلا خيانة، فقد اتصل "مراد" بالإنجليز، ونجحت مفاوضاته معهم بالفعل، وأعلن الإنجليز أنهم سيصفحون عن كل ما ارتكبه "مراد" إذا ما انضم إلى الإنجليز في المعركة الأخيرة التي كان يجري التحضير لها لإنهاء وجود الحملة في مصر، وأبدى "مراد" استعداده التام للانضمام إلى الإنجليز ومحاربة الفرنسيين!! ، وبدا أن "مراد بك" يغير انتماءه في سرعة كما يغير الواحد منا قميصه في يوم صيفي حار، وكانت انتماءات "مراد" كلها لمصلحته ولم تقترب قط من مصلحة المصريين، وفي ذروة سعادته بأنه نجح في أن يلعب على الجانبين الفرنسي والإنجليزي بنجاح، كان المرض القاتل ينتظره، فقبل نشوب المعركة الأخيرة بين الإنجليز والفرنسيين، أصاب الطاعون "مراد" ومات به في 22 أبريل 1801م ودفن بسوهاج، وأنقذه الموت من مصير مجهول كان ينتظره، وأنهى حياة طويلة مليئة بالانقلابات والتحولات والخيانات .

"يعقوب حنا"..
نموت نموت.. وتحيا فرنسا!



"إني وجدت رجلاً ذا دراية ومعرفة واسعة اسمه المعلم يعقوب ، وهو الذي يؤدي لنا خدمات باهرة منها تعزيز قوة الجيش الفرنسي بجنود إضافية من القبط لمساعدتنا"

من إحدى رسائل الجنرال "مينو" لـ"نابليون"

أول ظهور للمعلم "يعقوب حنا" كان عقب الاحتلال الفرنسي للقاهرة تماماً، حيث أرسل "نابليون" حملة إلى الصعيد يقودها الجنرال "ديزيه"، وكانت هذه الحملة تهدف إلى مطاردة جيش "مراد بك" والمماليك الذين فروا إلى الصعيد، وإخضاع العبيد للسيطرة الفرنسية، خرج المعلم "يعقوب" في هذه الحملة مرافقاً لـ"ديزيه"، لغرض واحد يحدده "الجبرتي" بقوله:

"ذهب معهم لكي يطلعهم على أمور ويعرفهم على المخبآت"

ولد "يعقوب" في ملوي بالمنيا سنة 1745م، وعمل في المهن المالية كمعظم الأقباط حينها، وصار من رجال "سليمان بك" أحد أتباع "مراد بك"، وتولى إدارة أملاكه في أسيوط، وهكذا حين خرج "يعقوب" مع "ديزيه" كان يعرف طرق الصعيد وأوضاعه المالية والإدارية والاجتماعية، وكان عليه أن يمهد الطريق أمام الفرنسيين للحصول بسهولة على أموال المصريين، لكن ما حدث أن مهمة "يعقوب" تجاوزت ذلك كله، فتحول إلى مستشار خاص لـ"ديزيه"، أصبح باختصار ذراعه اليمنى، ولأنه كان يعمل لدى المماليك طوال حياته، فقد كان ملماً بطرق تفكيرهم ويمكن أن يخمن خططهم في القتال، وطرق الهجوم والدفاع، بل إن "يعقوب" نظم شبكة من الجواسيس والعملاء للاستطلاع وجمع المعلومات عن تحركات "مراد" وتقديمها للفرنسيين..

شارك "يعقوب" في القتال الميداني بالصعيد حيث قاد فصيلة من الجيش الفرنسي ضد قوة مملوكية في أسيوط واستطاع أن يحقق الانتصار ويهزم المماليك، مما دفع "ديزيه" إلى أن يقدم له تذكاراً عبارة عن سيف

كتب عليه " معركة عين القوصية - 24 ديسمبر 1798م".

وقام "يعقوب" بجمع الضرائب من أهالي الصعيد للحملة واستعمل أبشع وأعنف الوسائل في جمعها، وكان أهل الصعيد يسمون حملة الجنرال "ديزيه" "جيش المعلم يعقوب"، وكان من أبشع ما قام به "يعقوب" هو عندما سمح قائد حملة الصعيد لجنوده بأن يعيثوا في الأرض الفساد (ليرفع معنوياتهم) فكان يعقوب يفتش عن فتيات الصعيد مسلمات كن أو قبطيات ليقدمهن إلى سادته من الضباط والجنود الفرنسيين..

عاد "يعقوب" إلى القاهرة بعد حملة الصعيد، وكانت ثورة القاهرة الأولى قد وقعت، ويبدو أنه قد عرف حقيقة موقفه وموقف الأهالي منه ولذا حول داره إلى ما يشبه القلعة العسكرية، وجعل لها بوابة محصنة يقف عليها الحرس المسلحون ليلاً ونهاراً، وتوافق ذلك مع شروع "نابليون" في بناء عدة قلاع حول القاهرة، بحيث تحيط مدافعه بالقاهرة كلها، واعتبرت قلعة المعلم "يعقوب" واحدة من قلاع الفرنسيين في القاهرة، ثم قامت ثورة القاهرة الثانية، وبالطبع انحاز فيها "يعقوب" إلى الفرنسيين كالمعتاد، بل وتروي المصادر الفرنسية أن "يعقوب" قاتل ببسالة وحماس مما أثار تقدير "كليبر" شخصياً..

وبعد أن انتهت الثورة وبدأ "كليبر" يعاقب الثوار ويكافئ الذين تعاونوا مع الفرنسيين، كان أول الذين كوفئوا المعلم "يعقوب"، وأخذت المكافأة عدة أشكال، فقد فرض "كليبر" غرامة كبيرة على الأهالي، وجعل "يعقوب" مسئولاً عن جمع هذه الأموال (وبالوسائل التي يراها مناسبة)..

لكن المكافأة الكبرى التي نالها "يعقوب" هي منحه رتبة "جنرال" في

الجيش الفرنسي، وتكليفه بتشكيل ما عرف ب"الفيلق القبطي" وتولي قيادته، ليكون هذا الفيلق وحدة أو جزءاً من الجيش الفرنسي داخل مصر..

وبالفعل جمع "يعقوب" نحو 2000 من شباب الصعيد وأحضرهم إلى مصر وألبسهم ملابس الجنود الفرنسيين وتلقوا تدريباتهم العسكرية التي تؤهلهم ليكونوا قوة مساعدة لجنود الحملة الفرنسية. بالطبع كان المعلم "يعقوب" حالة شاذة بين الأقباط، ولم تكن الجماهير القبطية راضية عما يفعله، فيروي "نخلة روفايلة" في كتابه "تاريخ الأمة القبطية" أن الشعب القبطي بأكمله ورجال الدين وعلى رأسهم البابا لم يكونوا راضين عن تصرفات المعلم "يعقوب"، حتى إن البابا نصحه كثيراً بالعدول عما يفعله فلم يقبل "يعقوب"، بل وتجرأ ذات مرة ودخل كنيسة راكباً جواده وشاهراً سيفه..

وضع "يعقوب" نفسه بصورة نهائية ضد المشاعر العامة للمصريين، ولم يترك لنفسه أي منفذ للتراجع، وعندما تسلم العثمانيون القاهرة من الفرنسيين بعد انتهاء الحملة، أعطى العثمانيون الأمان للجميع، إلا أن "يعقوب" لم يرد البقاء في مصر، وقرر الخروج مع الحملة الفرنسية المنسحبة، أبحر "يعقوب" إلى فرنسا، وبعد يومين من رحيله عن مصر أصيب بالحمى وظل يهذي لمدة أربعة أيام حتى مات، ووضعت جثته في برميل من الخمر ودفن في فرنسا، والغريب بعد كل هذا أن ينادي بعض الباحثين بأن المعلم "يعقوب" قد "ظلم" تاريخياً، وأنه كان صاحب أول دعوة وطنية لاستقلال مصر بعد أن تأثر بمبادئ الثورة الفرنسية من طول معاشرته لرجال الاحتلال الفرنسي !

الحملة الفرنسية..
هل يمكن أن نشكر "الميكروب"؟!



هل يمكننا أن نشكر فرنسا لحملتها على مصر؟! هل يمكننا أن نشكر (الميكروب) الذي أصابنا بنزلة برد عنيفة لعدة أيام أو حتى شهور لأنه وهبنا مناعة -ولو جزئية- ضده وضد أمثاله تدوم معنا إلى الأبد؟ سؤال قد يبدو مستفزاً وغريباً لأول وهلة، ولكنه ذات السؤال الذي طرح منذ عدة سنوات، وتحديداً سنة 1998م وهو: هل تحتفل مصر بمرور 200 سنة على الحملة الفرنسية على مصر أم لا؟ دعونا نفكر بموضوعية وحياد ونرى هل

كانت الحملة الفرنسية شراً خالصا على مصر، هل كان الفرنسيون كالتتار يسفكون الدماء ويدمرون الأخضر واليابس (فقط) أم كان للحملة الفرنسية (بعض) الفوائد لمصر؟ فلنصغ لما ستروية لنا صفحات التاريخ قبل أن نجيب على هذا السؤال..

كان أول ما قام به "نابليون بونابرت" عندما دخل إلى القاهرة كان إنشاء الديوان، حيث نصّت المادة الأولى من البيان الذي أصدره "نابليون" في 25 يوليو سنة 1798م على أن: "تحكم مدينة القاهرة بواسطة ديوان مكون من تسعة أعضاء"، ويحكي مؤرخ الشعب "عبد الرحمن الجبرتي" أن "نابليون" أمر باستدعاء جميع المشايخ والوجاقلية (أي قادة الجند)، فلما قابلهم طلب منهم "انتخاب" تسعة من المشايخ "للديوان وفصل الحكومات" أي لإدارة الدولة، وعليهم أن "ينتخبوا" أيضاً "كاتم سر" أي سكرتيراً عاماً للديوان، ونفهم من رواية "الجبرتي" أن المشايخ والوجاقلية الذين يمثلون الشعب المصري هم الذين "انتخبوا" أعضاء الديوان، وهو الأسلوب الذي يعرف باسم "الانتخاب على درجتين"، كأن ينتخب الشعب المصري مثلاً أعضاء مجلس الشعب ثم يقوم مجلس الشعب بعد ذلك بانتخاب رئيس الجمهورية، ويجب أن نلاحظ أن كلمة "انتخاب" لم تكن كلمة مألوفة حينها، بل ربما كانت من الكلمات الجديدة على أسماع الناس في مصر في ذلك الوقت، وعممت فكرة الديوان في جميع أقاليم مصر، وكانت بقية الدواوين تخضع لديوان القاهرة، كما شكل "نابليون" ديواناً عاماً يضم ممثلين عن جميع الدواوين..

وعلى الرغم من أن الديوان كان بمثابة الحكومة المدنية، فكانت له

صلاحيات تعيين كبار الموظفين في الدولة وتنظيم شئون المواطنين، إلا أن السلطة الحقيقية كانت بيد الجيش، ويكفي أن نعرف أن أعضاء الديوان كانوا يقسمون عقب انتخابهم على ألا يقوموا بأي تصرف ضد مصلحة جيش الحملة الفرنسية!

ولا شك في أن تأسيس الديوان على النحو السابق كان نواة لنظام شورى ديمقراطي لم تكن تعرفه البلاد من قبل، خاصة إذا لاحظنا أنه قد وضع سنة 1798م أي في أواخر القرن الثامن عشر، وفي ذلك الحين لم يكن النظام الدستوري/الديمقراطي مألوفاً في الشرق، بل كان الحكم المطلق القائم على الظلم والاستبداد وأهواء الحكام هو السائد في كل بلاد الشرق، بل في أغلب بلاد أوربا باستثناء إنجلترا وفرنسا، أما معظم الأمم الأوربية فقد كانت لا تزال تعاني من ديكتاتورية واستبداد حكامها..

فالنظام الذي أنشأه "نابليون" في مصر إذاً كان نظاماً جديداً في الحكم، فبالإضافة إلى كونه قريب الشبه من النظام الديمقراطي، فإنه يكفي أنه جعل للمصريين دوراً - ولو بسيطاً - في حكم مصر، فقد كان المصريون في خلال حكم المماليك بعيدين عن أي نفوذ أو سلطة، فنظام الديوان بالرغم من أنه ترك السلطة العليا للفرنسيين فقد أشرك المصريين في إدارة الحكومة، وهذا شيء جديد كان له أثره في التطورات التي ظهرت في البلاد في أوائل القرن التاسع عشر، ومن المؤكد أن "نابليون" بوضعه نظام الديوان كان متأثراً بعض التأثر بالأفكار والمبادئ الجديدة التي أوحت بها الثورة الفرنسية لأذهان الناس، فقد كان "نابليون بونابرت" قبل كل شيء قائداً طموحاً إلى الفتح والسلطان لكنه في نفس الوقت كان ابناً للثورة الفرنسية

التي أعلنت حقوق الإنسان وقررت حرية الشعوب، فمهما تغلبت فكرة الفتح والاستعمار في رءوس القواد والفاتحين فإنهم مضطرون أن يجاروا الروح الجديدة التي ولدتها الثورة الفرنسية في نفوس الجماهير، ونرى ذلك في البيانات الودية التي أصدرها "نابليون" فور وصوله إلى مصر ويعد المصريين فيها بأن يجعل حكم مصر لأهلها..

فـ"نابليون" استثار الروح الوطنية المصرية في منشوراته وبياناته للمصريين، ولكنه في نفس الوقت قد أثارها باعتدائه واعتداء جنوده على البلاد وأهلها، فقد أثارت هذه الاعتداءات كراهية المصريين للاحتلال الفرنسي، وحمستهم لمقاومته بكل الوسائل، تلك المقاومة التي يرى "الرافعي" أنها هي التي شكلت كيان الدولة المصرية الحديثة.

فنظام الحكم الذي وضعه "نابليون" في مصر - مع تسليمنا بمنفعته الجزئية لمصر- لم يكن ليصرف نظر المصريين عن أن يروا في الحملة الفرنسية اعتداء دولة أجنبية على بلادهم بدون حق، والواقع أننا لو تتبعنا تاريخ الحملة الفرنسية في مصر لوجدناها سلسلة مقاومات مستمرة من جانب المصريين ضد الحكم الفرنسي طوال ثلاث سنوات هي عمر الحملة الفرنسية في مصر، فيذكر المسيو "مارتان" أحد المهندسين الفرنسيين الذين صحبوا الحملة إلى مصر أنه "بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر فإنهم لم يستقر لهم قرار في البلاد، وكان مركزهم فيها مزعزعاً ومحفوفاً بالمتاعب ولم يترك الأهالي وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا اتبعوها، وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة"

إذاً فنظام الديوان اعترض عليه المصريون فقط لأنه تابع للمحتل

الفرنسي، وفتح أعينهم على أنهم قادرون على حكم أنفسهم بدون وصاية من أحد، وظل الحلم يراودهم باستمرار بعد ذلك.. حلم أن يحكموا أنفسهم بديوان مصري ينتخبونه بأنفسهم..

لقد اصطحب "نابليون" معه – كما يقولون- المدفع والمطبعة، وحين غادر مصر أخذ المدفع وترك المطبعة.. وعلى الرغم من أن الحقيقة التاريخية تؤكد أن الحملة الفرنسية قد أخذت معها وهي تغادر مصر المطبعة أيضاً، إلا أن هذه العبارة صائبة إلى حد كبير، ومن الغريب أن نعرف أن "نابليون بونابرت" لم يكن مجرد قائد عسكري عبقري فحسب بل كان محباً للعلم لدرجة أنه كان عضواً منتخباً في المجمع العلمي الفرنسي العريق، وكان يفخر جداً بعضويته في هذا المجمع حتى إنه كان يكتب في مراسلاته: "من نابليون بونابرت عضو المجمع العلمي الفرنسي والقائد العام للجيش"، أي أنه كان يقدم عضويته بالمجمع العلمي على كونه القائد الأعلى للحملة الفرنسية..

اصطحب "نابليون بونابرت" في حملته على مصر فريقاً كبيراً من علماء فرنسا ونوابغها في الرياضيات والهندسة والطب والجغرافيا والفلك والأدب والكيمياء والجيولوجيا والاقتصاد والآثار، إضافة إلى الفنانين من رسامين وموسيقيين ومثالين إضافة إلى مطبعة عربية وأخرى فرنسية وثالثة يونانية، وفي 22 أغسطس سنة 1798م أصدر "بونابرت" أوامره بإنشاء مجمع علمي مصري (على غرار المجمع العلمي الفرنسي) على أن يكون الغرض منه:

تقدم العلوم والمعارف في مصر وعمل أبحاث عن جميع جوانب مصر

ونشرها، إضافة إلى إبداء رأيه للحكومة في المسائل التي تستشيره فيها، وقد نستعجب عندما نعرف أن "نابليون" كان نائباً لرئيس هذا المجمع، وأنه كان أحد علماء قسم الرياضيات!!

وكان المجمع العلمي يصدر جريدتين باللغة الفرنسية بانتظام، وكانت هذه أول مرّة يسمع المصريون عن هذا الاختراع الجديد المسمى بالجرائد، وعرضت على المجمع العديد من المسائل لدراستها، كالوسائل التي يجب اتخاذها لزراعة العنب في مصر، ودراسة طريقة زراعة القمح في مصر ومقارنتها بطرق زراعته في أوربا، وحفر الآبار في الصحراء، وإعادة الاستفادة من المواد المتخلفة من مدينة القاهرة وسائر المدن المصرية، وإنشاء مرصد فلكي كامل، وكان أعضاء المجمع العلمي والبعثة العلمية المرافقة للحملة الفرنسية لا يدخرون جهداً في متابعة أنشطتهم العلمية في مختلف الفنون والعلوم، فأنشأوا في المجمع معملاً للطبيعة والكيمياء وجهزوه بالآلات والأدوات الخاصة بدراسة العلوم الطبيعية والرياضية، وأخذوا يجوبون البلاد فاكتشفوا الآثار وأزاحوا الستار عن تاريخ مصر القديمة، ورسموا خرائط مفصلة لمصر ولنيلها وترعها وسواحلها.

كما أنشأوا مكتبة تحوي الكتب التي أحضروها معهم من فرنسا بالإضافة إلى الكتب التي جمعوها من خزائن الكتب في القاهرة، وكان دخول هذه المكتبة متاحا للجميع بمن فيهم المصريون، وكانوا يرحبون بمن يجدون عنده حباً للمعرفة من المصريين، فيحكي "الجبرتي" أنه قد زار هذه المكتبة بنفسه وذكر أن العاملين فيها استقبلوه "بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم"..

كما أقاموا أول مسرح في مصر لتمثيل المسرحيات الكوميدية، يقول "الجبرتي": "وأنشأوا مكاناً يقال له في لغتهم الكمدي (يقصد كوميدي) وهو عبارة عن محل يجتمعون به كل عشرة أيام ويتفرجون به على ملاعيب يلعبها جماعة منهم بقصد التسلية، وذلك بلغتهم ولا يدخل أحد إليه إلا بورقة معلومة (يقصد التذاكر) وهيئة مخصوصة"، كما أنشأوا في الأزبكية كازينو سموه "التيفولي" على اسم نظيره في باريس وسماه "الجبرتي" في تاريخه "دار الخلاعة"!!

ولا شك أن فكرة تأسيس هذا المجمع العلمي كانت إحدى أفكار "نابليون" العبقرية لأنه أسس هذا المجمع بعد أن وصلته أنباء كارثة تحطم أسطوله البحري في خليج "أبو قير"، وبتدمير الأسطول قطعت كل صلة بينه وبين فرنسا وأصبح هو وجيشه محاصرين في مصر، ومع ذلك فقد قرر تأسيس المجمع العلمي ليكتفي بموارد البلاد الطبيعية عن أي إمدادات أو مؤن كانت ستصله من فرنسا، بالطبع كان "نابليون" يطمح في أن تصبح مصر مستعمرة فرنسية للأبد ولذلك كان يهتم بعمل الأبحاث عنها وتعميرها قدر الإمكان..

يقول المؤرخ الكبير "عبد الرحمن الرافعي": "وإذا نظرنا إلى هذا المجمع من الوجهة العلمية البحتة نجد أنه قد نفع البلاد بآثاره وأعماله، وتعد المذكرات التي كتبها أعضاء المجمع العلمي نواة للأبحاث العلمية الخاصة بمصر، ويكفي أن ندقق النظر في أعمال أعضاء المجمع وأبحاثهم المنشورة في كتاب وصف مصر (26 مجلد أبحاث و11 مجلد صور ورسوم) لنقدر مبلغ ما قاموا به من الأعمال وما يستحقونه من الإعجاب والثناء.."

بين الاحتلال والفوضى..
سنوات مصر الأخطر في تاريخها!



لربما لم تعرف مصر في تاريخها الحديث بأكمله فوضى كتلك التي عرفتها في تلك السنوات الأربع التي تلت خروج الحملة الفرنسية من مصر سنة 1801م وانتهت بتولي "محمد علي" باشا حكم مصر سنة 1805م، فوضى مفاجأة حلّت بلا مقدمات وعلى جميع المستويات، من النوع الذي يذكرنا بالفوضى التي حلّت بالعراق بعد الغزو الأنجلو ـ أمريكي له، فعلى

المستوى السياسي لم يكن يعرف من الذي يحكم مصر بالضبط، وعلى المستوى الاقتصادي فقر مدقع وغلاء وضرائب باهظة أتت على الأخضر واليابس..

وعلى المستوى الاجتماعي مظالم بلا نهاية وسرقات وسفك دماء بالجملة، ونفوس الجماهير التي سئمت من طول حياة الذل والهوان تؤذن بثورة قريبة لا تبقي ولا تذر، كانت الفوضى عارمة، ولن نبالغ إذا قلنا إن سنوات الفوضى الأربع تلك كانت أخطر سنوات في تاريخ مصر الحديث بأكمله حتى تمنى أهل مصر لو عاد الفرنسيون لحكمهم من جديد، ولنحكِ القصة من البداية..

رحلت الحملة الفرنسية عن مصر بعد احتلال دام لثلاث سنوات كاملة، وتنازع حكم مصر بعد رحيل الفرنسيين ثلاث قوى مختلفة المصالح والأغراض، اتحدت في البداية لمحاربة الفرنسيين، ولما انهزم الفرنسيون بدأت كل قوة تعمل لتحقيق أطماعها الخاصة في مصر.. كانت تلك القوى هي: العثمانيون والإنجليز والمماليك، أما العثمانيون فقد تطلعوا إلى عودة مصر ولاية عثمانية كما كانت منذ الفتح العثماني لمصر سنة 1517م، ولاية عثمانية يحكمها وال يرسله السلطان إلى مصر ولا يكون له هم إلا جمع الأموال والهدايا التي سيقدمها إلى حاشية السلطان من عرق ودم المصريين ليظل على عرش مصر (المحروسة)، ولكي تصبح مصر ولاية عثمانية خالصة كان هدف العثمانيين الرئيسي هو القضاء على المماليك للأبد . كانت القوات العثمانية في مصر مكونة من جيشين ، الجيش الأول يتألف من 30 ألف مقاتل بقيادة الصدر الأعظم "يوسف باشا ضيا" (رئيس الوزراء

العثماني شخصياً)، بينما يتألف الجيش الثاني من 6 آلاف مقاتل بقيادة قبطان الأسطول العثماني "حسين قبطان" باشا، أما الإنجليز فكان جيشهم مكوناً من أكثر من 20 ألف مقاتل، وكانوا يهدفون إلى تأمين طريق المواصلات إلى أهم مستعمراتهم: الهند، درّة التاج البريطاني، بينما كان المماليك يرون أنهم أحق الناس بحكم مصر، فعندما جاءت الحملة الفرنسية كان حكم مصر في أيديهم، فمن المنطقي إذاً - في تصورهم - أن يعود الوضع إلى ما كان عليه بعد رحيل الفرنسيين، وكان المماليك يعرفون جيداً أن العثمانيين يريدون أن يتخلصوا منهم للأبد، فارتمى معظمهم في أحضان الإنجليز لينالوا حمايتهم، ورحب بهم الإنجليز فقد رأوا فيهم ستاراً يمكنهم الاختباء من خلفه وحكم مصر بواسطتهم، فوعد الجنرال "هتشنسون" قائد الجيش الإنجليزي المماليك بأن يعيد لهم سلطتهم القديمة في مصر إذا انضموا إلى جيشه، وهو ما فعله معظم المماليك بالفعل..

غير أن المماليك قد ضعفت قوتهم في المعارك التي نشبت بينهم وبين الفرنسيين خلال الحملة الفرنسية، وأصبح عددهم لا يزيد عن 5000 مملوك، ومثل هذه القوة لم تكن لتصمد أمام قوة الجيش العثماني، هذا فضلاً عن عوامل الانقسام والتنافس التي كانت تضعف من قوتهم، فقد استمر التنافس القديم الذي كان بين "مراد بك" و"إبراهيم بك"، فكان لكل منهما أنصار وأتباع يتقوى بهم، ولما مات "مراد بك" استمر النزاع بين أنصار "إبراهيم بك" وخلفاء "مراد بك"، وقد استخدمت تركيا هذا الانقسام لتضرب المماليك بعضهم ببعض .

وكان المماليك أيضاً مختلفين في وجهة النظر السياسية، فأغلبهم كان

يرى السلامة في الاحتماء بالإنجليز وعلى رأسهم "محمد بك الألفي"، بينما كان فريق آخر يرى النجاة في الاحتماء بالفرنسيين، وكان هناك فريق ثالث يرى التزام الحياد والانضمام إلى العثمانيين.. ووسط صخب المدافع الإنجليزية وبهرجة الملابس العثمانية وصهيل خيول المماليك التي لا تعرف إلى أين تتجه وبمن تحتمي، وسط كل تلك القوى التي تنازعت النفوذ والسلطة في مصر، كانت هناك قوة أخرى بدأت تظهر على استحياء دون أن تلاحظها أو تهتم بها تلك القوى الثلاث، قوة الشعب المصري الذي ظل في سبات عميق إلى أن أيقظه دوي مدافع "نابليون".. فلقد كانت سنوات الاحتلال الفرنسي بمثابة تدريب للشعب على الكفاح والنضال السياسي، تعلم الشعب الوديع كيف يثور، جرّب لأول مرة مقاومة الاضطهاد ومكافحة القوة المسلحة، جربها مع "نابليون بونابرت".. قاهر ملوك أوربا ومزلزل عروشها!

ومع ذلك كله فلم يكن للشعب دور إيجابي ملموس خلال تلك السنوات إلا عندما ثار وولّى حكم مصر لـ"محمد علي باشا" سنة 1805م كما سنرى، كانت أحوال مصر خلال تلك السنوات الأربع التي تلت جلاء الحملة الفرنسية بالغة السوء، والكل يتصارع لينال نصيباً أكبر من كعكة الوطن، بينما الشعب صاحب الحق الوحيد يقف متفرجاً في انتظار المعجزة !

المماليك.. أن يكون الحاكم عبداً!



"يا مصر انظري إلى أولادك وهم حولك مشتتون متباعدون مشردون واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود وأراذل الأرناؤود وصاروا يقبضون خراجك ويحاربون أولادك ويقاتلون أبطالك ويقاومون فرسانك ويهدمون دورك ويسكنون قصورك ويفسقون بولدانك وحورك ويطمسون بهجتك ونورك ، قضي الأمر وخلصت مصر لـ"محمد علي" وما ثم من ينازعه ويغالبه وجرى حكمه على المماليك المصرية فما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم"

"محمد بك الألفي" قبل وفاته

كانت قوات المماليك موالية للفرنسيين، ومع رحيل الحملة الفرنسية،

وجد المماليك أنفسهم في مواجهة جيش عثماني ضخم يهدف لإعادة مصر ولاية عثمانية من جديد والقضاء على المماليك للأبد، ولم يجد المماليك أمامهم إلا الإنجليز ليرتموا في أحضانهم، ورحب الإنجليز بذلك تماماً، بل ووعدوا المماليك بأن يعيدوا إليهم سلطتهم ونفوذهم القديم، ولكن السياسة الإنجليزية في ذلك الوقت بدأت تتجه نحو التقرب من العثمانيين، وهو ما أحس به المماليك، وعلى الفور غير المماليك من اتجاههم وأرسلوا رسالة إلى "نابليون بونابرت" يستعطفونه فيها لكي يساعدهم! وتعطينا هذه الرسالة التي أرسلها كل من "إبراهيم بك" و"عثمان بك البرديسي" لـ"نابليون بونابرت" فكرة عن حالة المماليك النفسية ومدى تخبطهم وإحساسهم بالضياع:

"لقد هدمتم سلطتنا التي كانت ثابتة في مصر من سنوات عديدة، والآن يحق لنا أن نلجأ إلى عطفكم لتعيدوا لنا تلك السلطة، لقد وقع الانقسام في صفوفنا بعد وفاة مراد بك، فاضطررنا أن نلجأ إلى الحماية الإنجليزية، وأعلن العثمانيون حرباً ظالمة علينا، ونحن لدينا من القوة ما يمكننا من مقاومتهم، ولكننا في حاجة إلى دعم يأتينا من الخارج(!!)، فإليك نلجأ، وفيك وضعنا كل ثقتنا، فتوسط لنا عند الباب العالي (السلطان العثماني) ليوقف الحرب ضدنا، ونحن على استعداد لقبول الشروط التي تفرضونها علينا، ونتعهد بأن نختص تجارة الأمة الفرنسية بأعظم المزايا.."!

ولكن "نابليون" لم يعبأ بتلك الرسالة، فقد كانت سياسته متجهة حينها أيضاً إلى كسب صداقة الدولة العثمانية .

عجيب أمر المماليك، عجيب بقدر ما هو عبثي، وهل هناك أشد عبثاً من

أن يكون الحاكم عبداً مملوكاً؟! كان المماليك يؤمنون بأنهم هم وحدهم أصحاب الحق في حكم مصر، مصر التي عاشوا فيها زهرة حياتهم، والتي لا يعرفون لهم (وطناً) يقبلهم سواها..

كانت علاقة المماليك بمصر غريبة حقاً، لم يكونوا مصريين يوماً، كان أبرع وصف لحالتهم هو الاسم الذي أطلقه شعب مصر عليهم: "المصرلية"، طبقة فريدة من نوعها تجمع بين النقيضين: "المصرية" و "العثمنليّة" !

وكان المماليك على استعداد لفعل أي شيء يعيد إليهم حكم مصر من جديد، فبعد فشلهم مع "بونابرت"، ولّوا وجوههم من جديد نحو إنجلترا، ولم توصد إنجلترا الباب في وجه المماليك، فمن يدري؟ فربما تحتاج بريطانيا العظمى إلى خدماتهم في مصر يوماً ما..

ومع جلاء القوات الإنجليزية عن مصر سنة 1803م، وجه الجنرال "ستوارت" قائد القوات الإنجليزية المنسحبة الدعوة لـ"محمد بك الألفي" لزيارة لندن ، وقبل "الألفي" الدعوة..

يذكر "فولابل" الذي كان معاصراً لتلك الأحداث في كتابه "مصر الحديثة" أن "الجنرال ستوارت قد دعا الألفي بك إلى مغادرة مصر والسفر إلى لندن ليبرهن للحكومة الإنجليزية على سهولة الاستيلاء على مصر واستغلالها سياسياً واقتصادياً، ولما كان عليه الألفي من الطمع والتطلع إلى منافعه الخاصة اغتنم الفرصة وعزم على استغلالها دون أن يفهم أن الإنجليز إذا سمحوا له باصطحابه فلكي يكون لديهم رهينة لضمان بقاء المماليك على ولائهم".

وعلى الرغم من ذلك فلا يمكننا القول بأن "محمد بك الألفي" كان مغامراً أو صعلوكاً، والحقيقة أنه كان سياسياً محنكاً وواحداً من كبار قادة المماليك إن لم يكن أهمهم على الإطلاق، فيذكر "الجبرتي" عنه أنه "آخر الأمراء (المصريين) شهامة وصراحة ونظراً في عواقب الأمور، وبموته ذهبت دولتهم وتفرق شملهم، ولم تقم لهم بعدها راية.."

فهذا الرجل الذي بموته انتهت دولة المماليك لعب دوراً سياسياً خطيراً في تاريخنا المصري، وكان فكره السياسي يتلخص في أن يمكّن الإنجليز من احتلال ثغور مصر الرئيسية (الإسكندرية، ورشيد، ودمياط) مقابل أن تسعى إنجلترا لدى الدولة العثمانية لكي توافق على أن يصبح حكم مصر بيد المماليك .

وصل "الألفي" إلى لندن بعد رحلة طويلة، فأحسن الإنجليز استقباله ورحبت به الصحافة الإنجليزية، ومكث في العاصمة الإنجليزية قرابة ثلاثة أشهر قابل فيها الملك "جورج" الثالث ملك الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، كما قابل ولي عهده وأقطاب السياسة الإنجليزية، وعرض على الحكومة الإنجليزية (كتابة) أن تشمل المماليك بمساعدتها ورعايتها .

ولكن إنجلترا كانت وقتها تسعى لصداقة الدولة العثمانية لكي تسبق منافستها فرنسا، فأهملت شأن "الألفي" بعض الوقت، لكنها لم تلبث أن غيرت من سياستها بعد أن جاءت الأنباء من مصر بفوز المماليك واستيلائهم على الحكم، فتغيرت وجهة النظر البريطانية، وقرر الإنجليز أن يساعدوا المماليك ليدركوا جزءاً من الكعكة في مصر، فكتبت وزارة الخارجية رسالة إلى "الألفي" وعدته فيها بالسعي لدى الدولة العثمانية

للتوفيق بين المماليك وبين السلطان .

وبالفعل برّت إنجلترا بوعدها ورفع السفير الإنجليزي في إسطنبول مذكرة للباب العالي بخصوص المماليك، ولكن المساعي الإنجليزية لدى الدولة العثمانية قد فشلت لحسن الحظ، فنجت مصر من حكم المماليك والإنجليز لبعض الوقت، ورجع "الألفي" من إنجلترا تقله سفينة حربية جعلتها الحكومة الإنجليزية تحت تصرفه، وعندما وصل إلى رشيد، اجتمع لعدة ساعات بنائب القنصل البريطاني، ثم أقلته سفينة القنصل الخاصة في النيل والعلم الإنجليزي يرفرف عليها..

ولكن أطماع "الألفي بك" وأحلامه في حكم مصر لم تتحقق، فلم يكد يصل إلى القاهرة حتى وجد في استقباله عددا من رجال "عثمان بك البرديسي" يريدون القبض عليه وقتله!، فلقد كان "البرديسي" يريد أن يستأثر وحده بحكم مصر، وكان "الألفي" هو منافسه الوحيد، ولكن "محمد بك الألفي" استطاع الهرب إلى الصعيد، حيث أخذ يحاول أن يجمع شمل أتباعه من جديد..

كانت زيارة "محمد الألفي" لإنجلترا واحدة من أخطر الألاعيب السياسية في تاريخنا الحديث.. ويكفي أن نقول إنه لو نجح "الألفي" في مساعيه في إنجلترا لتغير التاريخ المصري بأكمله، فلو قام الإنجليز حينها باحتلال مصر وتمكين المماليك من العودة إلى الحكم بالقوة، لما وصل "محمد علي" إلى الحكم، ولتأخر بناء الدولة المصرية الحديثة كثيراً، وربما ظلّ المماليك يحكمون مصر إلى الآن !

لقد كان المماليك على استعداد لفعل أي شيء يعيد إليهم مكانتهم في

مصر من جديد، وربما لم ينظروا لعلاقتهم بالإنجليز على أنها خيانة للوطن بقدر ما هي مناورة سياسية يهدفون منها إلى الرجوع إلى الحكم، وللسياسة حساباتها الخاصة دائماً بعيداً عن أية شعارات أو مبادئ ..

وربما أيضاً كان المماليك ينظرون إلى الدول الأوربية على أنها مهد المدنية والديمقراطية التي ستخلص مصر من حكم العثمانيين البغيض، وتدفع بها إلى طريق التقدم والرخاء تحت قيادة المماليك الرشيدة !

ايش تاخد من تفليسي يا "برديسي"!



انتهت الحملة الفرنسية على مصر سنة 1801م بوصول القوات العثمانية- الإنجليزية إلى مصر وهزيمة الجيش الفرنسي منهك القوى في أكثر من موقعة، مما دعى الجنرال الفرنسي "بليار" إلى طلب التفاوض للجلاء عن مصر، وبالفعل تم توقيع اتفاقية الانسحاب الكامل من مصر في 31 أغسطس سنة 1801م..

ومن هذا التاريخ وحتى سنة 1805م -حين تولى "محمد علي" حكم مصر- كانت الحالة السياسية في مصر مضطربة للغاية، فكان حكم مصر متنازعا عليه بين الدولة العثمانية والإنجليز وبقايا المماليك، إضافة إلى القوى الشعبية بقيادة السيد "عمر مكرم" نقيب الأشراف، كل هذا و"محمد علي" يحرك الأحداث من وراء الكواليس وينتظر اللحظة المناسبة التي

انتظرها طويلاً .. ولكن لهذا قصة أخرى!

ما يعنيناالآن هو أن حكم مصر قد عاد بعد كثير من النزاعات والحروب الصغيرة إلى أيدي المماليك، وتحديداً إلى "عثمان بك البرديسي" تلميذ "مراد بك" ، ومع عودة حكم المماليك، عادت كل شرورهم وطغيانهم، وعادوا إلى سياستهم بفرض الضرائب الباهظة على أهل مصر، وكان المماليك لا يدعون فرصة إلا ويفرضون على الناس ضريبة أو غرامة جديدة، فاشتد تذمر الأهالي وخاصة أن فيضان النيل قد نقص في تلك السنة (أغسطس 1803م) نقصاً شديداً، فأثر ذلك النقص في حالة الزراعة، واستولى الذعر على أهل القاهرة، وأقبلوا على شراء الغلال خوفاً من حدوث مجاعة، فارتفعت الأسعار، وشح الخبز في الأسواق، واشتدت الأزمة الاقتصادية على أغلب الشعب، وازداد الأمر سوءاً مع تكرار اعتداءات المماليك والجنود الألبانيين على ما في أيدي الناس من الأموال والغلال، وفي خلال ذلك شكا الناس إلى كبار العلماء من تكرر هذه الاعتداءات، فذهب السيد "عمر مكرم" وعدد من كبار شيوخ الأزهر إلى البكوات المماليك وطلبوا منهم منع اعتداء العساكر على الناس، فوعدوهم بذلك وأعلن الأغا (المحافظ) والوالي (رئيس الشرطة) "الأمن والأمان للرعية، وأنه إذا وقع من الجند اعتداء أو نهب فللناس أن يضربوهم(!!) وإن لم يقدروا عليهم فليأخذوهم إلى رؤسائهم.." غير أن مثل هذه الوعود والتنبيهات ذهبت أدراج الرياح، واستمر الجند والمماليك في اعتدائهم على الأهالي، وأخذ جو القاهرة يكفهر منذراً بالثورة..

بدأت أحداث الثورة عندما تجمهر الجنود (بتحريض من "محمد علي") عند دار "عثمان بك البرديسي" مطالبين برواتبهم المتأخرة، فاستنجد "البرديسي" (بصديقه) "محمد علي" الذي تدخل مشكوراً وقام بتهدئة الجنود في مقابل وعد من "البرديسي" بأن يدبر في بضعة أيام المال اللازم لدفع رواتبهم المتأخرة..

كانت خزانة الحكومة خالية من المال بسبب سوء الإدارة وتلف الأراضي الزراعية وتعاقب الفتن والقلاقل، ففرض "البرديسي" ضريبة جديدة على تجار القاهرة، لكنه مع ذلك لم يحصل على المال الكافي لسد حاجة الجنود الذين كانوا يزدادون كل يوم صخباً وضجيجاً، فاعتزم "البرديسي" في شهر مارس سنة 1804 أن يفرض ضريبة جديدة على جميع الأهالي بلا استثناء، وكانت قيمة الضريبة الجديدة أجرة سنة كاملة موزعة على الملاك والمستأجرين، وكلف عمال الحكومة بأن يحصلوها من كل فرد من أفراد القاهرة من ملاك ومستأجرين..

أخذ عمال الحكومة يعاونهم جنود المماليك يجوبون أحياء القاهرة وشوارعها وحاراتها يكتبون أسماء الملاك والمستأجرين والتجار، ويلزمون كل شخص بدفع الضريبة، فبدأ الناس يتذمرون، وامتنع كثير من الناس عن دفع المطلوب منهم إما لعجزهم أو لاستنكارهم لهذا الظلم، وخرج الناس من بيوتهم محتشدين في الشوارع حاملين الرايات والدفوف وأخذوا يلعنون حكام المماليك وهم يهتفون: "إيش تاخد من تفليسي يا برديسي!!"

أغلق التجار وكالاتهم ومحلاتهم واتجهت الجموع الغاضبة إلى الأزهر لمقابلة المشايخ والاحتجاج لديهم على الضريبة الجديدة، فقام المشايخ من

جديد على أمراء المماليك يطالبون بإلغائها.. يروي المسيو "فولابل" الذي عاصر تلك الأحداث واصفاً حالة القاهرة وما وقع فيها: "انتشر عمال الحكومة ومعهم طوائف من الجند المماليك في أحياء القاهرة وشوارعها يطالبون الناس بدفع الضرائب، وبدأت المطالبة هادئة، ثم ما لبثت أن ثارت الاحتجاجات وامتنع كثير من التجار عن دفع ما يطلب منهم إما لكونهم أكثر احتياجاً ممن دفعوا الضريبة أو أكثر شجاعة منهم، فاشتدت المناقشة وعلا الصخب، ثم لم يلبث الشعب أن احتشد بأكمله في الشوارع، واتجهوا إلى المساجد التي اتخذوها ملتقى لاجتماعاتهم، فسرعان ما غصّت المساجد بجموع الشعب، وقبضت الجماهير في ساعة الغضب الأولى على بعض جباة الضرائب وقتلوهم"

أخذت روح الثورة تنتقل من حي إلى حي حتى عمّت أنحاء القاهرة، واضطرب "عثمان بك البرديسي" عندما رأى الشعب الثائر يستولي على الميادين والشوارع، وكانت الحركة موجهة ضد حكم المماليك من جهة، وضد مساوئ الجنود الأرناؤود (الألبانيين) من جهة أخرى.

وخشي "محمد علي" أن تصيب الثورة جنوده الألبانيين بالأذى، فبادر بكشف المماليك أمام الشعب وجعلهم وحدهم هدفاً لغضب الجماهير، وأعلن انضمامه إلى العلماء والمشايخ، ونزل إلى الشوارع واختلط بالجماهير الغاضبة، وقابل علماء الأزهر وتعهد لهم بأن يبذل نفوذه لرفع هذه الضريبة، كما أنه أوصى جنوده الأرناؤود باحترام الشعب، فاختلطوا بالناس وأعلنوا عدم رضاهم عن هذه الضريبة وقالوا إنهم إنما يطالبون برواتبهم من الحكومة وليس من الأهالي، أو كما يقول "الجبرتي": "وفي وقت قيام

العامة (أي ثورة الناس) كان كثير من العسكر منتشرين في الأسواق فداخلهم الخوف، وصاروا يقولون لهم إنا معكم سواء بسواء، وأنتم الرعية ونحن العسكر، ورواتبنا على الميري (الحكومة) لا عليكم" ، ويتبين من رواية "الجبرتي" أن ثورة الشعب كانت على جانب كبير من الخطورة، مما جعل جنود "محمد علي" يخافونها ويحسبون حسابها جيداً..

كسب "محمد علي" بهذه السياسة الحكيمة عطف الشعب وثقة زعمائه، وبدأ الناس ينظرون إليه كرجل عادل يكره الظلم ويحب الخير للناس، وطالب العلماء بإلغاء الضريبة، أما "عثمان بك البرديسي" فقد قابل هذه الثورة بغطرسة، وتوعد الشعب المصري بالنكال أو كما يقول "الجبرتي": "أظهر "البرديسي" الغيظ من أهل مصر وخرج من بيته مغضباً إلى جهة مصر القديمة وهو يلعن أهل مصر ويقول لا بد من تقريرها (الضريبة) عليهم 3 سنوات بدلاً من سنة واحدة(!!) حيث لم يمتثلوا لأوامرنا".

فـ"البرديسي" والبكوات المماليك غضبوا من المصريين لأنهم لم (يمتثلوا) لأوامرهم، وكانوا يريدون منهم الطاعة العمياء والرضوخ للظلم والقهر، وأخذ المماليك يستعدون لمقاومة الثورة ويستدعون رجالهم الذين كانوا موزعين في الأقاليم ولكنهم تباطأوا في الحضور لانهماكهم في نهب القرى، وانتهز "محمد علي" فرصة غضب الشعب على المماليك وثورته عليهم وتفرق جنود المماليك في الأقاليم، فأمر جنوده فهاجموا المماليك الموجودين في القاهرة، وحاصروا بيت "إبراهيم بك" وبيت "عثمان بك البرديسي"، وبيوت باقي زعماء المماليك في أنحاء العاصمة، واستمر

الحصار إلى اليوم التالي ..

وجد المماليك أنفسهم بين شقي الرحى، ثورة الأهالي من جهة، وجنود "محمد علي" من جهة أخرى، فلم يجدوا سبيلاً للنجاة سوى الفرار من القاهرة بعد أن قتل منهم عدد كبير، وكان أول الفارين "عثمان بك البرديسي" نفسه، ومع أن بيته (الذي تقع مكانه المدرسة السنية في السيدة زينب الآن) كان أشبه بقلعة تحيط بها الأبراج المحصنة، إلا أنه لاذ بالفرار إلى مصر القديمة ومنها إلى حلوان، كما فر كذلك "إبراهيم بك" إلى الصحراء، وكان جنود المماليك يحتلون قلعة الجبل ويطلقون القنابل على الأزبكية، فلما علموا بفرار زعيمهم "عثمان بك البرديسي" و"إبراهيم بك"، وقع الرعب في قلوبهم وأوقفوا الرمي وأخلوا القلعة وفروا لاحقين بـ"إبراهيم بك"، وتسلم القلعة جنود "محمد علي"، وخرج من تبقى من المماليك من القاهرة على أسوأ حال، وذهبوا إلى الوجه القبلي يستعدون لاستئناف الحرب والقتال، وينهبون القرى في طريقهم ويفرضون عليهم الغرامات والأتاوات، وكانوا في فرارهم على غير الشجاعة التي كانوا يتظاهرون بها، أو كما يقول "الجبرتي": "غلب عليهم الخوف والحرص على الحياة والجبن، وخابت فيهم الظنون، وذهبت نفختهم في الفارغ، وجازاهم الله ببغيهم وظلمهم وغرورهم، ونزل بهم ما نزل، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله".

قتل من المماليك وجنودهم في ذلك اليوم نحو 350، وهرب الباقون منهم، وانتفض أهالي رشيد ودمياط وسائر العواصم على الحكام المماليك، فهربوا إلى الصعيد، ولم تقم بعد ذلك للمماليك قائمة. وانتهى حكمهم إلى الأبد، وفي اليوم التالي أبطلت الضريبة التي كانت سبباً في اشتعال الثورة..

"محمد علي" ..
تاجر الدخان الذي أصبح حاكما لمصر!



"إذا كان ثمة رجل تفصح عيناه عن العبقرية فهذا الشخص هو علي"

"أ. باتون" أحد الرحالة الذين حضروا إلى مصر وقابلوا "محمد

ستجد دائماً من يلعن هذا الرجل ويحشره في جملة الأبالسة، وستجد دائماً من يرفعه إلى مقام الآلهة، وربما لم يختلف النقاد والمؤرخون حول شخصية تاريخية كما اختلفوا حول "محمد علي" باشا وحفيده من بعده الخديو "إسماعيل"، ونحن لن نجعل من "محمد علي" ملكاً منزّلاً أو نبخس من حقه، ولكن المؤكد أن "محمد علي" كان من أعظم الحكام الذين حكموا مصر من أيام الفراعنة وإلى الآن ، إن لم يكن أعظم مَنْ حكم مصر في تاريخها الحديث بأكمله..

والغريب أننا رغم ذلك لا نعرف عنه إلا أقل القليل، وتحديداً لا نعرف عن وجوده في مصر شيئاً إلا أنّه كان قائداً للجند الألبانيين ، أما ما الذي جاء بالألبانيين إلى مصر أصلاً، وما علاقة "محمد علي" بهم فلا نعرف عنه شيئاً، على الرغم من أن أسرة "محمد علي" حكمت مصر لـ148 سنة كاملة، والحقيقة التي يجب أن نضعها في اعتبارنا ونحن نقرأ تاريخ تلك الفترة هي أن العالم لم يكن مقسّماً إلى دول ذات حدود ثابتة كما نعرفه الآن، ولكن خريطة العالم كانت مقسّمة إلى عدّة إمبراطوريات عملاقة تتقاسم حكم العالم فيما بينها، وهو نفس ما تتجه إليه الدول المتقدمة الآن، وعلى رأس تلك الإمبراطوريات العملاقة تأتي الدولة العثمانية التي كانت تمتد أملاكها في قارّات العالم القديم الثلاث: آسيا وإفريقيا وأوربا، وسُندهش إذا علمنا أن أملاك الدولة العثمانية في أوربا كانت تشمل اليونان ويوغسلافيا ورومانيا وبلغاريا والمجر وأجزاء من النمسا وألمانيا!! ، وكان انتماء أي مواطن يعيش في تلك الإمبراطوريات إلى إمبراطوريته، وليس إلى البلد التي ولد فيها، فلم يكن هناك حينها سوري أو مصري أو ألباني، كان الجميع في ذلك

الزمن ينتمون إلى كيان واحد ويحملون جنسية واحدة هي الجنسية العثمانية، تماماً كما أنه من غير المنطقي أن نقسم الشعب المصري إلى صعايدة وإسكندرانية وبورسعيدية، فالجميع في النهاية مصريون .

وقد نتعجب إذا عرفنا أن "محمد علي" لم يكن ألبانياً كما درسنا في مناهج التاريخ!

فقد ولد "محمد علي" ابن "إبراهيم أغا" في قرية "قولة" التي تقع الآن في بلاد اليونان! ويذكر بعض المؤرخين أن عائلة "محمد علي" تنتمي لأكراد مدينة ديار بكر التي تقع في تركيا الآن وتدّعي سوريا أن تركيا قد اغتصبتها منها(!!) ثم هاجر أبوه إلى "قولة" للتجارة واستقر بها، إذن هل "محمد علي" يوناني أم كردي أم سوري أم تركي؟؟! ، الواقع أنه لم يكن شيئاً من ذلك.. فلم يكن هناك حينها ما يسمى بدولة اليونان أو سوريا أو حتى دولة تركيا، لقد كان "محمد علي" مواطناً عثمانياً وحسب، وكانت قرية "قولة" التي تُطل مباشرة على بحر إيجة ترى من بعد على هيئة رأس حصان، فكان يطلق عليها قديماً "لاكوال" التي تعني باللاتينية الحصان، ثم تحوّلت مع الزمن إلى "كفالا" التي حرّفت إلى "قولة" باللغة العربية، كان أهل "قولة" البسطاء يعيشون كأهل أية قرية أخرى في مصر أو العراق أوالشام، رعايا للإمبراطورية العثمانية، لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات، ولكن "محمد علي" كان يدّعي كثيراً أمام زواره من الأجانب أنه ولد في مقدونيا موطن "الإسكندر المقدوني"، تماماً كما كان يدّعي أنه قد ولد في سنة 1769م، وهي السنة التي ولد فيها العديد من العظماء كـ"نابليون بونابرت" والشاعر الألماني "شيللر" والأديب الفرنسي الشهير

"شاتوبريان" رغم أنه لم يكن يوجد في "قولة" حينها سجلات أو أوراق رسمية للمواليد من أي نوع، ولكن "محمد علي" الداهية كان يحب دائماً أن يصنع لنفسه هالة مبهرة أمام الأجانب .

لقد كان يكرم وفادتهم ويغدق عليهم، وكان يقول: "إذا أعطيت درويشاً 20 قرشاً فإنه يمجدك في التكيّة، ولكن إذا منحت أحد الإفرنج 500 قرشا فإنه يمدحك ويفخمك في كل بقعة من بقاع الأرض عن طريق الصحافة" !

وكان "إبراهيم أغا" والد "محمد علي" - و"محمد علي" اسم مركّب بالمناسبة- يعمل رئيساً لحرس "قولة" أو "يول أجاسي" كما كان يطلق عليه، وهي وظيفة ضئيلة تماثل وظيفة شيخ الخفر التي كانت موجودة إلى وقت قريب في القرى المصرية، وكان لـ"إبراهيم أغا" 17 ولداً، لم يعش منهم سوى "محمد علي" الأمر الذي جعله ينشأ كطفل مدلل، خاصة وأن أباه "إبراهيم أغا" قد توفي مبكراً وعمر "محمد علي" حينها لا يتجاوز الرابعة عشرة، وكان زملاؤه من الصبية يسخرون منه ومن تدليل أمه الشديد له، ويبدو أن سخريتهم كان لها وقع كبير في نفسه مما استفزه إلى إصلاح حاله، فأخذ يصوم أياماً متواصلة ويمنع نفسه من النوم ليالي طويلة ليعوّد نفسه على الصبر والشدّة..

وكان لهذه التربية والتدريبات القاسية التي ألزم نفسه بها أثر كبير في حياته بعد ذلك، ويُذكر أنه قد دعا أصدقاءه الذين كانوا يسخرون منه إلى أن يسابقوه في التجديف إلى جزيرة على مرمى البصر، فما كادوا يبتعدون عن الشاطئ قليلاً حتى هبّت عاصفة قاسية لم تمكنهم من الاستمرار في التجديف، ولكن "محمد علي" ظلّ يجدف بقوة وعزم إلى أن بلغ الجزيرة.

يقول "محمد علي" عن ذلك اليوم: "ولما بلغت الجزيرة وجدت جلدي قد تسلخ، ولكني كنت سعيداً بأنني استطعت تحقيق ما أردته، وبهذه الطريقة مضيت في تنمية قواي البدنية والعضلية".

وبعد وفاة والده "إبراهيم أغا"، كفله عمه "طوسون"، ثم توفي عمه بعد ذلك بمدة بسيطة، فكفله حاكم "قولة" وكان صديقاً لوالده، وانتظم "محمد علي" في سلك العسكرية، وسرعان ما تجلت شجاعته ودهاؤه، فقد حدث أن امتنعت إحدى القرى التابعة لـ"قولة" وتسمى قرية "بروستا" عن دفع الضرائب، ولم يعرف الحاكم كيف يتصرف معها، فعرض "محمد علي" أن يتولى هو تحصيل الضرائب من أهل "بروستا" بطريقته الخاصة، فذهش الحاكم من تلك الجرأة لأن "بروستا" كانت خالية من أية حامية عسكرية تخيف الأهالي وتجبرهم على الدفع، ولكن حاكم "قولة" وافق في النهاية مع إلحاح "محمد علي"، وعلى الفور انطلق "محمد علي" إلى "بروستا" مصطحباً معه 10 من الجند، ولما بلغها دخل إلى مسجدها على الفور وأخذ يصلي، فظنه الناس زائراً أو عابر سبيل، وانتظر حتى جاء وقت صلاة الجماعة، وما أن انتهت الصلاة حتى أمر جنوده بأن يقبضوا على أربعة من أعيان القرية على الفور، ولم يستطع أهل "بروستا" أن يتصرفوا وقد أخذتهم المفاجأة، وخاصة أن "محمد علي" قد هددهم بقتل أعيانهم إذا قام أي من أهل القرية باعتراض سبيله، وهكذا استطاع أن يرجع إلى حاكم "قولة" ومعه أربع رهائن من أعيان "بروستا" ببساطة شديدة، وبنفس البساطة دفع أهل "بروستا" ما عليهم من الضرائب لينقذوا أعيانهم من الموت !

فأعجب حاكم "قولة" بذكائه وبسالته ورقّاه إلى رتبة اليوزباشي (النقيب)، وزوّجه من إحدى قريباته وهي التي أنجبت له "إبراهيم" و"طوسون"، وخلال عمره المديد لم يتزوج "محمد علي" بغيرها وإن كان له كما يذكُر البعض ما يزيد عن 30 ابناً وابنة من عدد من الجواري!

والواقع أن كل ما لدينا من معلومات حول نشأة "محمد علي" في "قولة" محل خلاف كبير بين المؤرخين، فعلى سبيل المثال يؤكد العديد من المؤرخين أن "محمد علي" لم يكن يتيماً على الإطلاق، وأن أباه توفي وسنه يزيد عن العشرين عاماً، وأن موضوع اليتم المبكّر هذا من اختلاق "محمد علي" نفسه ليظهر بصورة العصامي الذي بنى نفسه من الصفر ودون مساعدة من أي مخلوق !

تفرغ "محمد علي" بعد زواجه لتجارة الدخان فربح منها الكثير، وكان لممارسته التجارة دخل كبير في تثقيفه وتمرينه على الشئون الاقتصادية، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى الحياة العسكرية من جديد، فبعد أن جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر، جهزّت الدولة العثمانية جيشاً كبيراً لمحاربة الفرنسيين، وطلبت الدولة العثمانية من حاكم "قولة" أن يقدم ما لديه من الجنود، فألف كتيبة من 300 جندي وجعل قيادتها لابنه "علي أغا"، على أن يكون نائب القائد ومستشار الكتيبة هو "محمد علي"، وترقى "محمد علي" بذلك إلى رتبة "صاغ قول أجاسي" أي "رائد" في الجيش العثماني، وكانت هذه الدرجة هي بدايات سلّم المناصب العليا في جيش الدولة العثمانية..

وهكذا أبحر "محمد علي" إلى مصر ليشارك مع كتيبته في تدعيم قوات

الألبانيين (الأرناؤود).. وستدور الأيام كما سنرى في الحلقة القادمة ويصبح "محمد علي" اليوناني الكردي السوري التركي قائداً لتلك القوات الألبانية ثم حاكماً لمصر ، فحينها لم يكن مهماً إلا أن تكون عثمانياً وأن تتكلم اللغة التركية ليكون الطريق مفتوحاً أمامك لتتقلد أعلى مناصب الإمبراطورية العثمانية..

"محمد علي" .. الصبر مفتاح الحكم!



ترى هل كانت عبقرية "محمد علي" وحدها هي التي جعلت هذا الضابط اليوناني البسيط يصل إلى حكم مصر؟ أم أنه القدر الذي اختار ذلك المغامر ليجلس على ذات العرش الذي جلس عليه "رمسيس" و"أحمس" و"صلاح الدين" و"شجر الدر" و"قطز" و"بيبرس".. عرش مصر المحروسة؟ فالواقع أن "محمد علي" كان يتعامل منذ مجيئه إلى مصر بعبقرية فذة مع منافسيه الثلاثة على حكم مصر: الأتراك والمماليك والإنجليز، كما بارك القدر جميع خطواته منذ أن نزل من إحدى السفن العثمانية في "أبو قير" إلى أن أصبح الرجل الأول في مصر، ولنحكِ القصة

من البداية..

عندما وصل "محمد علي" إلى مصر سنة 1801م وجد الميدان مفتوحاً على مصراعيه أمامه لإظهار مواهبه وعبقريته السياسية والعسكرية، فاشترك في المعارك الأخيرة التي دارت بين الإنجليز والعثمانيين من جانب، وبين الفرنسيين من جانب آخر، فظهر اسمه أثناء هجوم الجيش العثماني على إحدى القلاع التي كان يحتلها الفرنسيون في الرحمانية - التي تقع في محافظة البحيرة اليوم- حيث كلفه العثمانيون بمهاجمة القلعة واحتلالها، فساعدته الأقدار في مهمته بانسحاب الفرنسيين من قلعة الرحمانية فاحتلها "محمد علي" دون عناء..

وقد شهد "محمد علي" انتهاء الحملة الفرنسية، وترقى في مصر إلى مرتبة كبار الضباط وهو لم يتجاوز الـ32 من عمره، وأخذ يراقب الصراع بين القوى الثلاث وهو يدّعي الحياد أغلب الوقت، ولكنه كان في الواقع المحرك الرئيسي للأحداث من وراء الستار، وكان العثمانيون هم من يحكمون مصر ظاهرياً بعد جلاء القوات الفرنسية، بينما كان المماليك والإنجليز يترقبون ما الذي ستسفر عنه الأحداث، وولى العثمانيون "محمد خسرو" باشا حكم مصر ليكون أول والٍ عثماني بعد جلاء الحملة الفرنسية عن مصر، أظهر العثمانيون الود للمماليك، وهم ينوون الغدر بهم، وبالفعل بعد أن اطمأن المماليك للعثمانيين، أقام العثمانيون حفلين كبيرين؛ واحدا بالقاهرة والآخر بالإسكندرية على شرف المماليك بحجة تكريمهم وتوليتهم الحكم..

وابتلع المماليك الطعم بسذاجة، ولم يضيّع العثمانيون الفرصة فقتلوا

واعتقلوا عدداً كبيراً من قادة المماليك في كلا الحفلين، وكان القضاء على الخصوم بتلك الوسيلة الغادرة من الأساليب المعتادة لتسوية الخلافات السياسية في ذلك العهد، جمع المماليك بقاياهم وفروا إلى الصعيد في أوائل سنة 1802م ليعيدوا ترتيب قواتهم من جديد، ورحلت الجيوش العثمانية عن مصر فأصبح "خسرو" باشا هو الحاكم الفعلي لمصر، أخذ مركزه يبدو وطيداً في مصر، وزاد في ثباته أن الحكومة الإنجليزية أرسلت إلى الجيش الإنجليزي المرابط في الجيزة تأمره بالعودة إلى الهند، وبالفعل انسحب الجيش الإنجليزي من الجيزة، ولم يبقَ منه سوى حامية صغيرة ظلّت في الإسكندرية..

ولم يبقَ أمام "خسرو" باشا إلا القضاء على بقايا المماليك التي كانت تشكل صداعاً مستمراً في رأس أي حاكم لمصر، فأخذ يرسل الحملات إلى الصعيد لتطهيره من حكم المماليك، ولكن قوات المماليك لم تكن لديها ما تخسره، فكانت تقاتل بشجاعة فائقة جعلتهم يهزمون جنود "خسرو" باشا في أكثر من موقعة..

وبدعم من الإنجليز أخذ المماليك يزحفون من الصعيد في اتجاه الوجه البحري، حتى وصلوا إلى دمنهور، فجهز "خسرو" باشا جيشين لمحاربتهم أولهما بقيادة "يوسف كتخدا"، والثاني بقيادة "محمد علي" باشا، بينما كانت قوات المماليك بقيادة "عثمان بك البرديسي" و"محمد بك الألفي"، وفي 20 نوفمبر سنة 1802م هاجم جيش "يوسف" بك المماليك بالقرب من دمنهور، فانتصر "البرديسي" عليه انتصاراً كبيراً مع قلة عدد رجاله، فقد قتل من العثمانيين عدة آلاف، واستولى المماليك على مدافع

الجيش العثماني وذخيرته..

كان جيش "محمد علي" على مقربة من الواقعة، لكنه لم يتحرك لنجدة "يوسف كتخدا" قائد الجيش الآخر، وذلك لأنه رأى أن من مصلحته أن يدع الترك والمماليك يتطاحنان حتى يضعف بعضهما بعضاً، وبذلك يتخلص منهما معاً، وقد تيقن "خسرو" باشا من أن "محمد علي" قد تعمد الامتناع عن نجدة "يوسف" بك، فنوى "خسرو" أن ينتقم منه، فأرسل إليه ليلاً ليدعوه إلى القلعة، وأدرك "محمد علي" مراده فلم يجب الدعوة، أو كما يقول "الجبرتي": "فأراد الباشا اصطياده - أي محمد علي - فلم يتمكن منه لشدة احتراسه"..

إذاً فقد سقطت دمنهور في يد المماليك، وأصبح طريقهم إلى القاهرة مفروشاً بالورود، ولكن أحلامهم الوردية تلك سرعان ما ذهبت إلى غير رجعة عندما أعلن الإنجليز عن جلائهم عن مصر نهائياً، حيث كان المماليك ينظرون إلى الإنجليز على أنهم سندهم الرئيسي في مصر..

ولم ينسَ القائد الإنجليزي الجنرال "ستيوارت" أن ينصح المماليك قبل رحيله بأن يتحصنوا بالصعيد من جديد حتى تتحسن الظروف! ، ومن جديد عزم "خسرو" باشا على إرسال جيش بقيادة قائدي الألبانيين "محمد علي" و"طاهر" باشا إلى الصعيد لمحاربة المماليك، ورأى "محمد علي" أن الفرصة سانحة أمامه للقضاء على "خسرو" باشا، فأوعز إلى الجنود بأن يطالبوا برواتبهم المتأخرة، فاستجابوا على الفور لدعوة "محمد علي" وأعلنوا التمرد والعصيان خاصة بعد أن علموا بنية "خسرو" باشا في إرسالهم إلى الصعيد لقتال المماليك من جديد..

تكررت حوادث تمرد الجند حتى صارت القاهرة في فتنة مستمرة، وتكررت مشاغبات مطالبة الجنود بمرتباتهم حتى اضطر "خسرو" باشا إلى ضرب الجنود بالمدافع من القلعة ظناً منه أنه يستطيع إخماد تمرد الجنود بالقوة، ولكن الفتنة استمرت، فاستولى الجنود على أهم المواقع في المدينة وأضرموا النار في قصر الوالي وحاصروه، ففر "خسرو" باشا إلى دمياط واستقر بها، وبفرار "خسرو" باشا انتهت ولايته التي استمرت سنة وثلاثة أشهر كان فيها كما يقول "الجبرتي": "سيئ التدبير، لا يحسن التصرف، يميل إلى سفك الدماء، ولا يضع شيئاً في محله".

وفي مساء هذ اليوم كانت المدينة في قبضة "طاهر" باشا قائد الجنود الألبانيين، وصار منصب الوالي خالياً، فرأى المشايخ والعلماء أن يصبح "طاهر" باشا "قائمقام"، أي أن يحكم مصر مؤقتاً حتى يثبته السلطان العثماني أو يعيّن حاكماً آخر بدلاً منه، على أن "طاهر" باشا لم يدم له الأمر طويلاً، فقد اشتهر بالظلم والجبروت وأطلق يد جنوده الألبانيين فأخذوا ينهبون ويسلبون كل شيء، إضافة إلى أنه لم يحسب حساباً للانكشارية..

كانت الدولة العثمانية دولة عسكرية يحمل الوالي أو السلطان فيها رتباً عسكرية، وربما لا يعرف الكثيرون أن كلمة "باشا" ليست إلا رتبة عسكرية تركية تساوي رتبة "اللواء" الآن، وكان الولاة دائماً ينتمون إلى الإنكشارية أشجع وأقوى فرق الجيش العثماني، وكلمة "إنكشاري" تعني بالتركية الجندي الجديد، ويرجع إلى الإنكشارية الفضل في العديد من الفتوحات العثمانية في أوربا أيام مجد الدولة العثمانية وقبل أن يصيبها

الوهن لتصبح دولة الرجل المريض كما كان يطلق عليها، وكان الجنود الإنكشارية الذين في القاهرة قد أخذوا يطالبون برواتبهم المتأخرة كما فعل الألبانيون، فرفض "طاهر" باشا طلبهم، وظهر تحيزه للألبانيين على حساب الإنكشارية، فكان يغدق الأموال على الألبانيين، وحين يطالبه الإنكشارية بمرتباتهم يحيلهم إلى "خسرو" باشا الوالي المخلوع!!، وزاد من سخطهم أن الألبانيين أذلوهم وكانوا يعتبرون انتصارهم على "خسرو" باشا فوزاً على الإنكشارية أجمعين، فعزم الإنكشارية على الفتك بـ"طاهر" باشا وتعيين أحد قادتهم بدلاً منه، وبالفعل استطاع الإنكشارية قتل "طاهر" باشا، وعادت بذلك السلطة مؤقتاً إلى الإنكشارية وكانت مدة حكم "طاهر" باشا أياماً معدودة، يقول "الجبرتي": "ولو طال عمره أكثر من ذلك لأهلك الحرث والنسل"..

كانت قوات المماليك وجنود "محمد علي" على أبواب القاهرة، فرأى الإنكشارية أن يبادروا إلى تعيين والٍ منهم يخلف "طاهر" باشا في الحكم ليضعوا المماليك و"محمد علي" أمام الأمر الواقع، فوقع اختيارهم على "أحمد" باشا والي المدينة المنورة، وكان موجوداً وقتئذ بالقاهرة، فولوه الحكم، وأرسل يستميل "محمد علي" الذي صار بعد مقتل "طاهر" باشا قائداً للجنود الألبانيين..

لكن "محمد على" رأى أن من مصلحته الاتفاق مع المماليك للتخلص من القوة التركية أولاً، ثم يتخلص من المماليك بعد ذلك، فاجتمع بـ"إبراهيم" بك في الجيزة، وأوعز إليه أنه أولى الناس بحكم مصر، فدخل "محمد علي" و"إبراهيم" بك و"عثمان بك البرديسي" وبقية قادة

المماليك إلى القاهرة متحالفين وطردوا "أحمد" باشا، فكانت مدة ولايته يوماً وليلة(!!) وأعلنوا تحالف المماليك والألبانيين واستولوا على زمام الحكم، وبدأت سلطة "محمد علي" تظهر في الميدان، ونادى المنادون في القاهرة "بالأمان حسبما رسم إبراهيم بك حاكم الولاية وأفندينا محمد علي"، فكان هذا النداء في شوارع القاهرة إعلاناً باقتسام السلطة بين "إبراهيم" بك و"محمد علي"، حيث إن عبارة "حسبما رسم به فلان" كانت بمثابة إعلان عن من يتولى السلطة في ذلك الزمن، ابتهج المماليك بما وصلت إليه الأحوال، وظنوا أن حكم مصر قد عاد من جديد إلى أيديهم، وشجعهم "محمد علي" على التخلص من بقايا الأتراك لكي يصفو لهم الجو، وعندما علمت الحكومة العثمانية بعزل "خسرو" باشا وفراره إلى دمياط ، وعودة السلطة إلى المماليك، عزمت على استرداد مكانتها التي اهتزّت، فعينت "علي باشا الجزايرلي" والياً على مصر بدلاً من "خسرو" باشا، وصل "على باشا الجزايرلي" إلى الإسكندرية وأقام بها بعض الوقت ثم غادرها إلى القاهرة أواخر سنة 1804م بعد أن تظاهر المماليك بأنهم سيتنازلون له عن الحكم إرضاءً للسلطان العثماني، وكانت هذه الدعوة إحدى ألاعيب المماليك المعتادة، فما كاد "علي" باشا يصل إلى قليوب، حتى منعه المماليك من دخول القاهرة، وأوصلوه إلى حدود سوريا وقتلوه في الطريق..

كان "محمد علي" هو العقل المدبر للحملة على "خسرو" باشا، ثم على "أحمد" باشا، ثم على "علي باشا الجزايرلي"، لكنه ظل بعيداً عن الصورة، وترك "عثمان بك البرديسي" يتعامل (بطريقته الخاصة) مع

"علي باشا الجزايرلي" ليتحمل مسئولية هذا العصيان الخطير للدولة العثمانية، والواقع أن مقتل "الجزايرلي" كان فيه القضاء على مظهر السلطة العثمانية في مصر، وبذلك تخلص "محمد علي" من إحدى القوتين اللتين كان يعمل على سحقهما، ولم يبقَ أمامه إلا قوة المماليك، فبدأ يعمل على التخلص منها، وتمهيداً لذلك ترك لزعماء المماليك السلطة ظاهرياً حتى يحملهم مسئولية الحكم ويجعلهم هدفاً لغضب الشعب، تولى الحكم بعد ذلك "عثمان بك البرديسي" حتى ثار عليه الشعب وكانت الفرصة سانحة أمام "محمد علي" ليتولى الحكم بعد فرار "البرديسي"، فقد استطاع التخلص من جميع منافسيه ولم تعد هناك أي قوى تقف في طريق طموحاته وأحلامه التي ليس لها نهاية، ولكن "محمد علي" كان صبوراً وبعيد النظر، فرأى ألا يصل إلى الحكم بقوة الجند، وفضل أن يملك مصر بإرادة شعبها وليس رغماً عنهم كما كان يحدث دائماً..

فاختار الثعلب "محمد علي" أن يحكم مصر "خسرو" باشا الوالي العثماني السابق الذي كان المماليك قد اعتقلوه في القلعة منذ عدة شهور، وأعلن المنادون في الشوارع "الأمان حسبما رسم خسرو باشا ومحمد علي"، وهكذا ازداد الشعب تعلقاً بـ"محمد علي" الذي تعفف عن الانفراد بالحكم، كما كسب بذلك عطف الحكومة العثمانية، وأثبت أنه لم يكن له يد في الفتن التي أدت إلى عزل "خسرو" ومقتل "علي باشا الجزايرلي"، وأن المماليك هم المسئولون عن ذلك كله..

ولكن أقرباء "طاهر" باشا لم يرضوا بتعيين "خسرو" باشا، لأنهم لم ينسوا عداءه القديم لقريبهم، فثاروا عليه وعزلوه وأرسلوه إلى رشيد

ومنها إلى إسطنبول، فلم يعارضهم "محمد علي" في ذلك، ولكنه أصر على أن يكون حكم مصر في يد أحد الباشوات الأتراك، ولذلك سعى في تعيين "خورشيد" باشا محافظ الإسكندرية والياً على مصر، وبالفعل وافق الشيوخ وزعماء الجند على ذلك، وعلى تعيين "محمد علي" قائمقام (وكيلاً)، وبعثوا إلى الإسكندرية رسولاً يدعو "خورشيد" باشا إلى الحضور إلى القاهرة ليتولى حكم مصر..

سار "خورشيد" باشا على نفس السياسة التي انتهجها الولاة من قبله، الظلم والفساد والجشع بلا حدود، ومع تعدد مظالمه تدخل العلماء كثيراً لرفعها عن الناس، ولذلك قوي نفوذهم، فلم يكن للشعب سواهم في الأزمات، وكان لنفوذ العلماء الذي وصل إلى أقصى مدى له حينها دور رئيسي فيما تلا ذلك من أحداث، حيث قادوا الناس وأعلنوا الثورة على "خورشيد" وجاءوا بـ"محمد علي" محمولاً على أعناق الشعب كما سنرى..

دع الشعب يختارك..
هكذا فعلها محمد علي!



عندما تولى "خورشيد" باشا محافظ الإسكندرية حكم مصر في مارس 1804م كان خامس من تقلد ولاية مصر في نحو سنتين، فأولهم "خسرو" باشا وقد تم خلعه، ثم "طاهر" باشا الذي قتل، يليه "أحمد" باشا الذي لم تزد مدة ولايته عن يوم واحد طرد بعده، ثم "علي باشا الجزايرلي" وقد قتل أيضاً، ثم تولى حكم مصر "خورشيد باشا" وعيّن "محمد علي" قائمقاماً - أي نائباً للوالي - ، كان "خورشيد" باشا يعلم مدى نفوذ "محمد علي" بين زعماء الشعب، وكان يعرف تماماً أنه لولا إيعاز "محمد علي"

للعلماء بأن يختاروه لما وصل أبداً لحكم مصر..

ويبدو أن "خورشيد" لم يعجبه أن يصبح مجرد واجهة أو دمية تحركها أصابع "محمد علي" من وراء الستار، فاستطاع أن يستصدر فرمانا من السلطان العثماني بعودة الجند الألبانيين وقادتهم (وعلى رأسهم "محمد علي" طبعاً) إلى بلادهم، فتظاهر "محمد علي" بالإذعان وأعد عدته للرحيل عن مصر، وببراءة منقطعة النظير قام بتسريب أمر ذلك الفرمان إلى العلماء الذين ثارت ثائرتهم وطالبوا "محمد علي" بالبقاء في مصر، واضطربت القاهرة لنبأ هذا الرحيل، وأغلقت الأسواق والدكاكين، فقبل "محمد علي" رجاء العلماء وأعلن استجابته للرأي العام وموافقته على البقاء في مصر ! ، واضطر "خورشيد" للإذعان مؤقتاً للأمر الواقع وقبل بقاء "محمد علي" في مصر، ولكنه رأى أن يرسله وقواته إلى الصعيد لقتال بقايا المماليك، ليخلو الجو بذلك لـ"خورشيد" في العاصمة..

ويخرج "محمد علي" باشا على رأس جنوده الألبانيين إلى الصعيد واستطاع استعادة المنيا منهم بعد أن حاصرها لمدة 56 يوماً، وفي هذه الأثناء استغل "خورشيد" فترة غياب "محمد علي" وجنوده في الصعيد، وأرسل يطلب من السلطان العثماني قوة عسكرية جديدة تعينه على قتال المماليك، أو للدقة لتكون سنداً له أمام قوات "محمد علي"، واستجاب له السلطان العثماني وأرسل له فرقة من أشد فرق الدولة العثمانية عنفاً وتوحشاً، أرسل له فرقة من فرق "الدلاة"..

ولو علمنا أن "الدلاة" جمع لكلمة "ديلي" التي تعني بالتركية "المجنون"، لاستطعنا تخيل مدى العنف والتهور الذي كان يتصف به جنود

"الدلاة"، وعندما وصلت الأنباء إلى "محمد علي" بوصول "الدلاة" إلى مصر، غادر المنيا على الفور وعاد بقواته إلى القاهرة ليحبط خطة "خورشيد" باشا قبل أن ترسخ أقدام "الدلاة" في مصر..

كان غرض "خورشيد" باشا أن يستعين بـ"الدلاة" ليتغلب على قوات "محمد علي"، لكن الأقدار شاءت أن تكون قوات "الدلاة" هذه سبباً في إنهاء حكم "خورشيد" إلى الأبد..

كان جيش "الدلاة" الذي جلبه "خورشيد" مؤلفاً من ثلاثة آلاف مقاتل، أخذوا يعيثون في الأرض فساداً ويعتدون على الأموال والأرواح بلا حساب، يقول "الجبرتي": "ودخلوا بيوت الناس وأخرجوا منها أهلها وسكنوها، وكانوا إذا سكنوا داراً خربوها وكسّروا أخشابها وأحرقوها لوقودهم، فإذا صارت خراباً تركوها وفعلوا ذلك بغيرها، حتى عمّ الخراب سائر النواحي..". ومع ذلك فقد غضّ "خورشيد" باشا طرفه عن كل هذا ليستعين بهم على محاربة "محمد علي"..

واستمر "الدلاة" في فظائعهم إلى أن جاء يوم الأربعاء أول مايو سنة 1805م حين اعتدى الجنود "الدلاة" على أهالي مصر القديمة وأخرجوهم من بيوتهم ونهبوا مساكنهم وأمتعتهم وقتلوا بعض الأهالي الآمنين، ويبدو أن الشعب قد نفد صبره، فثار أهالي مصر القديمة وتوجهوا رجالاً ونساء إلى جهة الجامع الأزهر، وانتشر خبر الاعتداءات والهياج بسرعة البرق في أنحاء القاهرة، واجتمع العلماء وذهبوا إلى الوالي لكي يضع حداً لفظائع "الدلاة"، فأصدر الوالي أمراً للجنود بالخروج من بيوت الناس وتركها لأصحابها، ولكن هذا الأمر صوري، فلم يستجب "الدلاة" له، فطالبه

العلماء بذلك من جديد، فاستمهلهم ثلاثة أيام يرحل بعدها الجنود عن القاهرة، وعندما انتهت المهلة، كان "خورشيد" باشا قد استطاع أن يبعد أغلب الجند "الدلاة" عن القاهرة، ولم يبقَ فيها إلا نحو 1500 جندي رفضوا الخروج من العاصمة حتى تدفع رواتبهم، ولأن خزانة الدولة المصرية كانت خاوية على عروشها، فالحل الوحيد المتاح أمام "خورشيد" هو فرض ضريبة جديدة على أهل القاهرة!

ولم يكد ينتشر نبأ الضريبة الجديدة حتى ثار الناس واهتاجوا واتفق زعماء الشعب من العلماء وكبار التجار على الذهاب إلى (بيت القاضي) أي المحكمة (لاختصام الوالي) هناك..

وبالفعل توجهت جموع الشعب الغاضبة إلى دار المحكمة، ويذكر المؤرخون أن عدد المتجمهرين أمام بيت القاضي ليختصموا الوالي كان يزيد على 40 ألف شخص!

اختصام الوالي؟!

أي أن الوالي قد أصبح (خصماً) لشعب مصر بأكمله! ولا نعرف من الذي أوحى لقادة الشعب بهذه الفكرة، ولماذا لم يقتصر اعتراض المصريين على الإضراب عن العمل أو التظاهر وتخريب ممتلكات الظالمين كما تعودوا أن يفعلوا دائماً! كانت مشاعر المصريين في ذلك اليوم العصيب مضطربة و ثائرة للغاية، وقد خرجوا في ذلك اليوم العصيب وهم يهتفون – كما ينقل الجبرتي- صارخين : "يا رب يا متجلي.. أهلك العثمانلي" !

على الرغم من أن فكرة الاستقلال عن الدولة العثمانية لم تكن تراود المصريين مطلقاً، فكانوا دائماً ما يوقرون "الدولة العليّة"، وينظرون

للسلطان العثماني على أنه سلطان الأمة الإسلامية كلها وخليفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الأرض، إلا أن غضب الشعب هذه المرّة من ظلم الولاة العثمانيين وطغيان جنودهم قد فاق كل حد . إذن فقد اجتمع زعماء الشعب في قاعة المحكمة، وطلبوا من القاضي أن يرسل في استدعاء وكلاء الوالي ليحضروا مجلس الشرع، فأرسل يستدعيهم، وعندما حضروا عرض العلماء مطالب الشعب، وكانت مطالبهم تنحصر في ألا تفرض ضريبة جديدة إلا إذا أقرّها العلماء وكبار الأعيان، وأن يخرج جميع الجنود من العاصمة، ولا يسمح بدخول أي جندي مسلح إلى القاهرة، وكتب العلماء مطالب الشعب في "عرضحال" -أي عريضة- وسلموها لوكلاء الوالي الذين وعدوا بالرد عليها في اليوم التالي ..

السيد "عمر مكرم" ..
حاكم مصر الذي لم يحكمها !



احترت كثيراً وأنا أفكر متى وماذا سأكتب عن السيد "عمر مكرم"..

فالكتابة عن مثل هذا الثائر العظيم تحتاج لكتاب مستقل كي توفيه بعضا من حقه، وكيف يمكننا أن نجمل في صفحات قليلة مسيرة رجل كانت حياته كلها ملحمة كفاح متواصلة قبل وصول الحملة الفرنسية عندما كانت داره قبلة المظلومين وما أكثرهم، وبعد وصول الحملة الفرنسية حينما كان أول من حمل لواء الجهاد ضد الفرنسيين، ولم يكد يسمع بوصول الأسطول الفرنسي إلى السواحل المصرية حتى صعد إلى القلعة وأنزل منها علماً

ضخماً أسمته العامة "البيرق النبوي"، وسار به من القلعة إلى بولاق يستحث الناس للجهاد في سبيل الله، وخلفه سار الآلاف وهم يكبرون ويهللون، بل لقد رفض رفضاً قاطعاً دعوة - أو للدقة أمر- "نابليون" بأن يكون عضواً في الديوان، بكل ما يتبع ذلك من نفوذ وحظوة ومكانة اجتماعية، وفضّل أن ينحاز إلى الشعب البسيط كعادته، فرحل إلى الشام منفياً تاركاً أمواله وأملاكه عرضة للنهب والسلب..

والمؤسف أننا لا نعرف الكثير عن حياة "عمر مكرم"، فـ"الجبرتي" لم يترجم له في كتابه، لأنه كان يترجم فقط لمن يتوفى، وتشاء الأقدار أن يموت "الجبرتي" قبل "عمر مكرم" فنحرم بذلك من ترجمة وافية لحياته، وإن كان يكفينا أن تاريخ "الجبرتي" قد حفظ لنا أهم موقف في حياة "عمر مكرم" على الإطلاق، وواحدا من أكثر حوادث الوطن ترقباً وأهمية: عندما بلغت مكانة السيد "عمر مكرم" في نفوس الناس حداً مكّنه من أن يفرض إرادته على السلطان العثماني شخصياً..

والذي حدث أن "خورشيد" كأي حاكم مستبد ضرب بمطالب الشعب عرض الحائط، ولم يعبأ بالقاضي أو بالمحكمة، وكان هذا الرفض معجلاً لسير الحوادث، فاجتمع وكلاء الشعب من العلماء ونقباء الصناع في اليوم التالي بدار المحكمة ليتداولوا في الموقف، واستقر رأيهم على عزل "خورشيد" باشا وتعيين "محمد علي" والياً مكانه، وقد حرر نواب الشعب وعلى رأسهم السيد "عمر مكرم" -الذي قيل إنه كان صاحب فكرة اختصام الوالي أمام المحكمة منذ البداية- يوم اجتماعهم محضراً بعزل "خورشيد" باشا وتعيين "محمد علي" بدلاً منه، وكان الذي تولى تحريره هو الشيخ

"محمد المهدي" أحد كبار علماء الأزهر الشريف، ووردت في هذا المحضر عبارة شديدة الدلالة احتفل بها العديد من المؤرخين العرب والأجانب وهي: "إن للشعوب طبقاً لما جرى به العرف قديماً ولما تقضي به أحكام الشريعة الإسلامية الحق في أن يقيموا الولاة ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة".

ما الذي يحدث؟! شعب مصر (الصبور القنوع المهاود) بفلاحيه وعماله البسطاء وتجاره وعلمائه يجتمع و(يقرر) عزل أكبر رأس في البلاد وبدون أية مساعدة من قوة خارجية، وبدون أي دعم أو توجيه من أي نوع؟! التاريخ يجزم بحدوث ذلك منذ مائتي سنة حتى لو لم نكن قادرين على استيعابه اليوم!

وهكذا انتقلت جموع الشعب إلى دار "محمد علي" وأبلغوه بقرارهم: "لا نرضى إلا بك والياً علينا (بشروطنا) لما نتوسمه فيك من العدالة والخير"، فأظهر "محمد علي" تردداً وامتناعاً حتى لا ينسب إليه أنه المحرض لهذه الثورة، وتمادى في إتقان دوره فقال إنه لا يستحق هذا المنصب، وإنه يخشى أن يكون في قبوله للولاية تعدٍ على حقوق السلطان العثماني!، ومع إصرار الجماهير رضي "محمد علي" أخيراً بقبول منصب الوالي(!!) ونهض "عمر مكرم" والشيخ "الشرقاوي" شيخ الجامع الأزهر فألبساه خلعة الولاية دلالة على أن شعب مصر هو من ولاه الحكم، رغم أن الجميع يعلمون أن الحكومة العثمانية تؤيد "خورشيد" باشا وتناصره في موقفه، وأن خلع "خورشيد" بهذه الطريقة لا تأويل له سوى أنه عصيان لإرادة السلطان..

والجميل أن ولاية "محمد علي" بهذه الطريقة لم تكن مجرد انتخاب شعب لمن يحكمه، بل كان الأمر مقروناً بأن يرجع "محمد علي" للشعب في جميع شئون الدولة، وهذه كانت بداية فكرة الحكم الدستوري، أو كما يقول "الجبرتي": "تم الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة على سيره بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع والإقلاع عن المظالم وألا يفعل أمراً إلا بمشورة العلماء وأنه متى خالف هذه الشروط عزلوه".

والسؤال الذي دائماً ما يفرض نفسه عند هذه اللحظة الفاصلة من تاريخنا هو: لماذا لم يرَ آلاف المصريين الذين اجتمعوا في دار المحكمة حاكماً يصلح لهم سوى مغامر لا يعرفون له أصلاً ولا فصلاً ك"محمد علي "، وتعمى أبصار الجميع عن السيد "عمر مكرم"، رغم أن مقادير البلاد كلها كانت بين يديه في تلك الأيام ؟

ألأن الشعب لم يكن يتخيل أن يحكمه رجل مدني مثقف كـ"مكرم" وهو الذي تعود لمئات السنين ألا يحكمه إلا العسكريين ورجال الحرب، أم لأن "عمر مكرم" نفسه كان زاهداً في شئون الحكم راغباً عنها، أم لأن المصريين كما يقول "الجبرتي" كانوا "لا يخافون إلا من الأتراك ولا يحكمهم سواهم" !

على أية حال فقد أبلغ زعماء الشعب قراراتهم إلى "خورشيد" باشا، ولكنه أجاب بكلمته الشهيرة: "إني مولى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر من الفلاحين، ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة"!، وهكذا لم يكن هناك مفر أمام (الفلاحين) من المواجهة! ، فأخذ الوالي يحصّن القلعة ويتزود من الأسلحة والذخائر والمؤن، ويستعد للقتال لإخضاع القاهرة

وإخماد الثورة بالعنف، وأخذ زعماء الشعب بدورهم يعدون الوسائل لحصار القلعة لإجبار "خورشيد" باشا على التسليم، فدعوا الأهالي إلى حمل السلاح، واحتشد الثائرون في ميدان الأزبكية حتى امتلأ بهم، وأرسل العلماء تحذيراً أخيراً للوالي لكي يغادر القلعة، ولكن الوالي استمر على عناده، فأخذ السيد "عمر مكرم" يحرّض الناس على الاجتماع والاستعداد للقتال، ويقول "الجبرتي" إن جنود" محمد علي" الأرناءود كانوا يستعدون بفتور وبلا حماسة لمقاتلة جنود الوالي لأنهم "من أجناسهم لأن غالبهم منهم"، وهو ما يعني أن الثورة التي انتهت بإجلاس "محمد علي" على عرش مصر قامت على أكتاف الشعب دون جنود "محمد علي" أنفسهم، ويؤكد هذا المعنى ما ذكره "الجبرتي" أيضاً في موضع آخر من أن "محمد علي" قد "انتصر بالسيد عمر مكرم النقيب والمشايخ والقاضي وأهل البلدة والرعايا"، فقد لبّى الأهالي الدعوة وخرج كل شخص حاملاً في يديه ما يقدر عليه من الأسلحة أو العصي أو الفنوس، فأقاموا المتاريس والاستحكامات بالقرب من القلعة وتحصنوا بها، واشتركت جميع طبقات الشعب في حمل السلاح على اختلاف أعمارهم ومراكزهم وطوائفهم، وبلغ عدد الثوار حوالي 40 ألفاً يحملون الأسلحة والعصي، بل إن كثيراً من الناس كانوا يبيعون ملابسهم أو يستدينون لكي يشتروا الأسلحة كما يذكر "الجبرتي"..

والحقيقة أن السيد "عمر مكرم" كان دينامو هذه الفترة ونجمها الأوحد بلا منازع، وكان المنادون يسيرون في الأسواق في تلك الأيام ويرددون نداءاتهم بـ"حسبما رسم السيد عمر أفندي والعلماء"، وهي العبارة التي

كانت تعني فعلياً أن السلطة بيد "عمر مكرم" وشيوخ الأزهر، وشهد بذلك كثير من الكتاب الأجانب الذين عاصروا هذه الفترة كـ"فولابل" الذي ذكر أنه "كان من الصعب أن يسود النظام ودبر التدابير المحكمة بين الجنود الذين اعتادوا عيشة الفوضى، والأهالي الذين لم يألفوا من قبل حركات القتال ومتاعبه، ولكن السيد عمر مكرم قد سد هذا النقص من جميع النواحي بهمته ونشاطه وشجاعته، فكان دائماً دائب العمل واليقظة، يحرك الجموع ويرتب مواقفهم ويبعث الحمية في نفوسهم ويشعل في كل لحظة نار الحماسة كلما خمدت جذوتها أو دبّ إليها دبيب الفتور".

وظلت الحرب بين الشعب والوالي مشتعلة إلى أن وصل إلى القاهرة يوم 9 يوليو سنة 1805م رسول يحمل فرماناً ينص على تثبيت "محمد علي" باشا والياً على مصر "حيث رضي العلماء والرعية بذلك، وأن خورشيد باشا معزول عن ولاية مصر".

فتوقف الضرب من القلعة، كما توقف الثوار أيضاً عن ضرب القلعة مع استمرار الحصار وبقاء المتاريس كما هي، حتى أذعن "خورشيد" باشا وسلم القلعة يوم الإثنين 5 أغسطس سنة 1805م، وبذلك انتهى حصار الشعب للقلعة بعد أن استمر نحو 4 أشهر، فكان "خورشيد" باشا آخر والٍ يحكم مصر بإرادة الدولة العثمانية، وبدأت بذلك دولة "محمد علي" في مصر.

الزعيم الشعبي
الذي صعد بـ"محمد علي" الى الحكم
فكان جزاؤه.. النفي الى دمياط !



"وإذا أصر الباشا على مظالمه فإننا نكتب إلى الباب العالي ونثير عليه الشعب، وأنزله عن كرسيه كما أجلسته عليه"

السيد "عمر مكرم"

حافظ "محمد علي" باشا على التزامه مع قادة الشعب في سنوات حكمه الأولى فكان دائم الرجوع إليهم لطلب مشورتهم، وعندما احتاجت الحكومة إلى فرض ضرائب جديدة لحاجة الدولة الماسة إلى المال، استأذن "محمد علي" أولاً من العلماء وأوضح أن الغرض منها هو دفع رواتب الجند المتأخرة، وأنهم عندما يقبضون مرتباتهم سيرحلون إلى بلادهم، واقتنع زعماء الشعب برأي الباشا لأنهم كانوا يتمنون جلاء الجنود الأرناءود و"الدلاة" بفارغ الصبر لكثرة مساونهم واعتداءاتهم المتكررة على الأهالي فوافقوا على فرض الضريبة الجديدة لعام واحد فقط.

وكما حفظ "محمد علي" عهده مع زعماء الشعب حافظوا هم على عهدهم معه، فحموه من دسائس المماليك التي ظهرت بعد أسبوعين فقط من توليه الحكم، وحتى عندما نجحت السياسة الإنجليزية في جعل الباب العالي يصدر فرماناً بعزل "محمد علي" وتقليده ولاية "سلانيك"، وتولية وال عثماني آخر مكانه وبحيث يرجع النفوذ الحقيقي من جديد للمماليك - حلفاء الإنجليز- كما كان الوضع قبل وصول الحملة الفرنسية، أسرع "محمد علي" إلى السيد "عمر مكرم" الذي جمع العلماء وكتبوا محضراً يحتجون فيه على عزل "محمد علي" ورجوع السلطة إلى المماليك مرّة أخرى، ولم تتقبل الدولة العثمانية عصيان أوامرها على هذا النحو الصريح، إلا أن ثبوت زعماء الشعب بجوار "محمد علي" وتعضيدهم الدائم له هو الذي جعل الباب العالي يغير من سياسته وانتهت الأزمة بوصول مرسوم من السلطان العثماني يتضمن "استمرار محمد علي في ولاية مصر حيث إن

الخاصة والعامة راضين بأحكامه وعدله بشهادة العلماء وأشراف الناس".

ولكن الأمر لم يستمر كثيراً على ذلك المنوال، ولم يكد "محمد علي" يشعر بأن الوضع قد استتب له تماماً، ولم يعد هناك ما يخشى على عرشه منه، حتى بدأ يضيق برقابة زعماء الشعب على سياسته، خاصة أن تلك الرقابة الشعبية لم يكن لها مثيل في ممالك الشرق حينها، وأخذ ينتظر الفرصة المناسبة لكي يتخلص من زعماء الشعب، أو من أكثرهم إزعاجاً له على الأقل، ولم يكن ذلك صعب الحدوث لأن زعامة مصر الشعبية في ذلك الوقت كانت تحمل في داخلها عناصر انحلالها كما يقول "الرافعي"، فلم يكن قادة الشعب على قلب رجل واحد، وأخذ التنافس والتحاسد يفرق بينهم، وخاصة من منزلة السيد "عمر مكرم" ومكانته بين الناس..

وكانت بداية الصدام الحقيقي بين "محمد علي" وزعماء الشعب سنة 1809 م عندما فرض الباشا ضرائب جديدة على الأراضي "الموقوفة" وهي التي ينفق عائدها على المساجد والأسبلة، وعلى الأراضي "الوسية"، وهي الأراضي التي كانت تمنحها الحكومة للملتزمين* لمساعدتهم على واجبات الالتزام ونفقاته من الصرف على المساجد والمدارس وإيواء المسافرين وضيافتهم في دائرة التزامهم، وهذان النوعان من الأراضي كانا معفيان تماماً من الضرائب من قبل، كما قررت الحكومة أن يؤدي جميع الملتزمين للحكومة نصف إيرادهم من الأطيان الداخلة في التزامهم، وهو ما يعني أن تقاسمهم الحكومة في معايشهم، إضافة إلى تقرير عدد من الضرائب الأخرى على بعض الحرف والصناعات، وكانت هذه السياسة الجديدة بطبيعة الحال سبباً في إغضاب ملاك الأراضي

والمستفيدين من الأوقاف والملتزمين، وجميعهم يمثل شريحة لا يستهان بها من الشعب، ولأنه لم يكن لهم أحد يشكون له إلا العلماء، فقد أسرعت جموعهم إلى الجامع الأزهر، وأبطل شيوخه الدروس وأرسلوا للسيد "عمر مكرم" فحضر على الفور، وانتهت مشاوراتهم إلى أن يرسلوا بياناً شديد اللهجة لـ"محمد علي" يعترضون فيه على الضرائب الجديدة، وألا يقابلوه مخافة أن يؤثر عليهم بأسلوبه الماكر إذا اجتمع بهم .

ويبدو أن "محمد علي" كان يشعر بما يجيش في صدور بقية العلماء من حقد وغيرة على السيد "عمر مكرم" فقرر أن يلعب على هذا الوتر بالتحديد، ودعا الشيخين "محمد المهدي" و"محمد الدواخلي" إلى لقائه في القلعة فصعدا إليها واجتمعوا بالباشا مخالفين بذلك ما اتفقا عليه مع "عمر مكرم"، واستطاع "محمد علي" بذلك أن يفرق شمل زعماء الشعب، وقد ذكر "الجبرتي" أن "محمد علي" قال لهما: أنا لا أرد شفاعتكم والواجب عليكم إذا رأيتم مني انحرافاً أن تنصحوني، وأخذ يلوم على السيد "عمر مكرم" تعنته قائلاً: إنه في كل وقت يعاندني ويبطل أحكامي، وهنا أسرع الشيخ "المهدي" يقول: "هو ليس إلا بنا، وإذا خلا عنا فلا يساوي شيئاً، إن هو إلا صاحب حرفة أو جابي وقف يجمع الإيراد ويصرفه على المستحقين"، ويكمل الجبرتي: "فعند ذلك تبين قصد الباشا لهم (أي التخلص من عمر مكرم) ووافق ذلك ما في نفوسهم من الحقد للسيد "عمر"، ثم تباحثوا قليلاً وقاموا منصرفين مذبذبين".

وقد حاول "محمد علي" كثيراً بعدها أن يستميل السيد "عمر مكرم" إليه بالترغيب والترهيب، فارسل إليه نائبه يوماً يطلب منه الحضور إليه ويعرض

عليه كيساً (500 قرش) كل يوم، إضافة إلى 300 كيس يدفعها له فوراً خلاف ذلك، وهي مبالغ مهولة بمقاييس تلك الأيام، ومع ذلك لم يلتفت إليها "عمر مكرم"، وعندما وجد الباشا أن "مكرم" ثابت لا يتزحزح عن موقفه قرر أن ينفذ ما عزم عليه، فنزل إلى بيت ابنه "إبراهيم" باشا في الأزبكية وأرسل يستدعي القاضي والمشايخ وأرسل إلى السيد "عمر مكرم" رسولاً يستدعيه للحضور أمام القاضي، فأدرك "مكرم" كما يقول "الرافعي" أن المؤامرة قد وصلت إلى دورها الأخير، ورأى أنه من العبث أن يذهب إلى محكمة يعلم تواطؤ أعضائها مع خصمه من البداية، فامتنع عن الذهاب معتذراً بمرضه، وما كان من "محمد علي" إلا أن أمر بعزل السيد "عمر مكرم" من نقابة الأشراف ونفيه إلى دمياط فوراً، وقد تقبل "مكرم" قرار الباشا بثبات عجيب قائلاً: "أما منصب النقابة فإني راغب عنه، وليس فيه إلا التعب، وأما النفي فهو غاية مطلوبي"، ثم طلب أن يكون منفاه إلى أي مكان ليس تحت حكم "محمد علي"، فرفض الباشا وأصر أن ينفيه إلى دمياط .

وكان يوم رحيل "عمر مكرم" إلى دمياط يوماً باكياً وقد أحس الشعب بأنه لم يعد له ظهر يرتكن إليه ويحتمي به من مظالم الباشا، وأنه قد صار وجهاً لوجه أمام "محمد علي"!

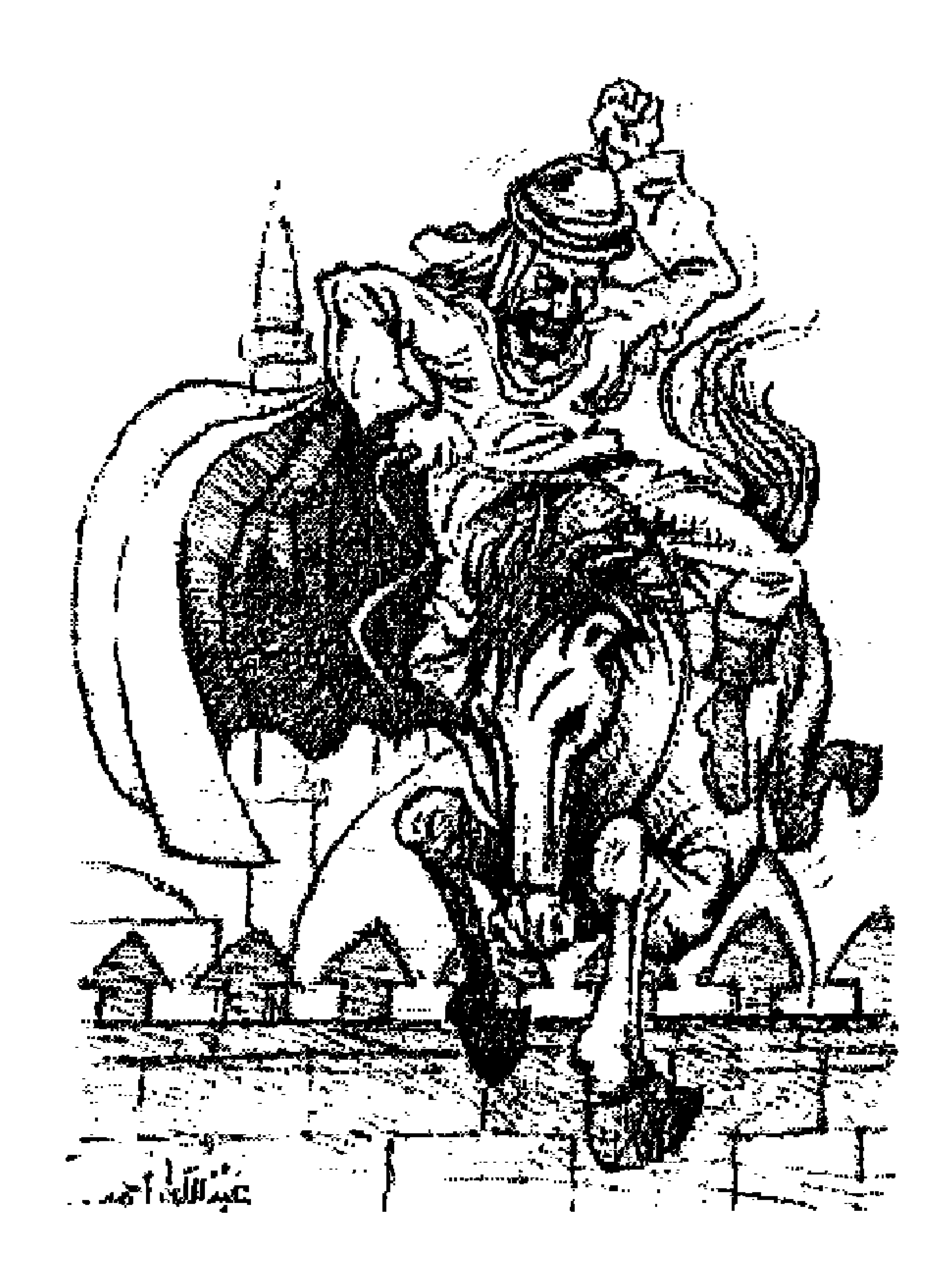
عاش السيد "عمر مكرم" في دمياط تحت المراقبة إلى أن تشفع له قاضي قضاة مصر لدى "محمد علي" فأذن له بالانتقال إلى طنطا بعد 4 سنوات قضاها في دمياط ، وبعدها بـ5 سنوات قضاها في طنطا طلب من "محمد علي" الإذن لكي يؤدي فريضة الحج، وكان "محمد علي" في تلك الفترة (1818 م) قد بلغ أوج قوته، ولم يعد يخشى من نفوذ "عمر مكرم"،

فأذن له بالعودة إلى القاهرة وأن يقيم بداره إلى أوان الحج، وورد أن "محمد علي" قال لأصحابه حينها: "أنا لم أتركه في الغربة هذه المدة إلا خوفاً من الفتنة، والآن لم يبق شيء من ذلك، فإنه أبي، وبيني وبينه ما لا أنساه من المحبة والمعروف".

ورغم أن السيد "عمر مكرم" بعد عودته من المنفى امتنع عن الجلوس في المجالس العامة واعتكف أغلب الوقت في حجرته الخاصة في بيته بساحل "أثر النبي"، فإن وجوده في القاهرة ظلّ مصدر قلق غامض لـ"محمد علي"!

وعندما ثارت في القاهرة فتنة سنة 1822 م بسبب فرض ضرائب جديدة على منازل العاصمة، ساورت الظنون "محمد علي"، وارتاب في أن يكون "عمر مكرم" وراء تلك الفتنة، فأرسل إليه رسولاً يأمره بالعودة إلى طنطا من جديد، وعندما أخبره "مكرم" بأنه سيرحل على الفور بمجرد أن يجد مركباً ينقله إلى طنطا، أخبره الرسول بأن المركب في انتظاره بالفعل في ساحل مصر القديمة!، وفي تلك الليلة سافر السيد "عمر مكرم" منفياً من جديد إلى طنطا، وفي تلك السنة نفسها كانت وفاته..

مذبحة المماليك..
القتل في سبيل السلطة.. والوطن !



"لو أمكن محو تلك الصفحة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد علي هدفاً لأحكام التاريخ القاسية"

المسيو "جومار" مدير أول بعثة تعليمية مصرية في فرنسا

بصرف النظر عن الدوافع التي أدت بـ"محمد علي" إلى اتخاذ قرار القضاء نهائياً على المماليك في مصر، وبصرف النظر عن كل ذلك النقاش الذي لن ينتهي بين مؤيد ومعارض لمذبحة القلعة، أفضل دائماً أن أنظر لأحداث القلعة على أنها تمثل أسلوباً لتعامل الحاكم مع خصومه السياسيين، فطريقة قمع المعارضين تحت أي مبرر موجودة دائماً وليست حكراً على العصور الوسطى أو عصر "محمد علي"، فسنجدها مثلاً في اعتقالات سبتمبر 1981م التي ألقى فيها "السادات" بكل اتجاهات المعارضة في غياهب السجون، وسنجدها في أي عملية اغتيال أو تصفية أو نفي أو اعتقال، ولا يدفعنا هذا إلى إصدار أحكام مباشرة على "محمد علي" أو المماليك، فلم يكن "محمد علي" سفاحاً يقتل لمجرد شهوة القتل وسفك الدماء كما كان سلفه "خسرو" باشا مثلاً، ولم يكن المماليك أيضاً خرافاً مسالمة، ظلت مصر خاضعة لحكم المماليك لأكثر من 5 قرون كاملة، وحتى بعد الفتح العثماني لمصر وشنق "طومان باي" آخر سلاطين المماليك من فوق باب زويلة، ظل للمماليك نفوذهم، واستطاعوا تنظيم صفوفهم من جديد والسيطرة على مقاليد الحكم في مصر تحت حكم اسمي للدولة العثمانية وصار منصب شيخ البلد - الذي يساوي رئيس الحكومة حالياً- حكراً على المماليك، بل ووصل نفوذ المماليك على أنهم كانوا يعزلون الوالي العثماني الذي يحاول أن يفرض سيطرته عليهم..

وخلال مئات السنين التي عاشها المماليك في مصر تطبعوا بطباع المصريين وإن لم يكونوا منهم، وظل الأمر على ما هو عليه إلى أن جاءت الحملة الفرنسية، وبعدها ارتقى "محمد علي" عرش مصر، ولم يكن "محمد علي" والياً عادياً يقبل أن يعيش تحت رحمة نفوذ وغدر المماليك..

دعونا لا نستبق الأحداث ولنؤجل الحكم إلى النهاية، ودعونا نصغ معاً ل"عبد الرحمن الرافعي" وهو يروي لنا أحداث هذا اليوم الدامي : الجمعة 1 مارس سنة 1811م..

إذا ذهبت يوماً لزيارة قلعة "صلاح الدين"، فقف قليلاً تحت منذنة جامع السلطان "حسن"، واتجه بنظرك إلى القلعة تجدها ماثلة أمامك بموقعها المنيع وأسوارها العالية وأبوابها الضخمة، وانظر أمامك تجد باباً ضخماً غائراً في الجبل تعلوه أبراج قديمة، وهو باب العزب، باب القلعة من الجهة الغربية، ويقع على الميدان المسمى الآن ميدان "صلاح الدين"، وكان يسمى حينها ميدان الرميلة، فإذا دخلت هذا الباب فستجد طريقاً وعراً متعرجاً منحوتاً في الصخر تسير فيه صاعداً حتى تصل إلى جامع "محمد علي" ثم إلى قصره، فإذا استحضرت صور تلك المواقع في ذهنك فاستمع إلى ما جرى فيها ..

تحدد يوم أول مارس 1811 موعداً لسفر الحملة المصرية بقيادة الأمير "أحمد طوسون" ابن "محمد علي" لإخماد الحركة الوهابية في الحجاز، وخرج شعب القاهرة كعادته في هذه المناسبات إلى الشوارع المحيطة بالقلعة لتوديع الجيش وسط أغاني الفرح ودقات الطبول .

و قبل بدء الاحتفال في صباح ذلك اليوم، دخل أمراء المماليك على "محمد علي" باشا الذي كان متصدراً قاعة الاستقبال الكبرى في قصره بالقلعة، وتوافد عليه العظماء مهنئين مباركين، وانتهزها المماليك فرصة لإظهار ولائهم للعهد الجديد فقد خمدت الحروب الطاحنة التي دارت رحاها في صعيد مصر بين بقاياهم وبين قوات "محمد علي"، ويئس المماليك من

النصر فألقوا أسلحتهم وتظاهر "محمد علي" بقبول الصلح فأعطاهم الأمان، وسمح لهم بالعودة إلى القاهرة ليعيشوا في قصورهم بين حريمهم وغلمانهم حياة اللهو والفجور..

ذهب البكوات المماليك إلى القلعة يرفلون في ثيابهم المزركشة، واستقبلهم "محمد علي" بالبشر والترحاب، وقدمت لهم القهوة، وشكرهم الباشا على إجابة دعوته، فشكروه واعتذروا له عن تخلف بقية المماليك من الذين ما زالوا في الصعيد ولم يحضروا للاشتراك في الحفل، فقبل الباشا اعتذارهم، ودوى النفير إيذاناً بتحرك الجيش فقام "محمد علي" واقفاً ونهض الأمراء المماليك يستأذنونه في الانصراف، فأخبرهم أنه سيكون أكثر سعادة لو أنهم شاركوا في المهرجان لكي يراهم أهل مصر وهم في صحبة الجيش، فوافق المماليك بحسن نية، وبدأ الموكب سيره حسب الخطة المرسومة، في المقدمة فرق الطبول والموسيقى، ثم الفرسان، ثم كتيبة الجنود الألبان بقيادة "صالح قوش" أحد المدبرين الرئيسيين للمذبحة، وبعدهم جموع البكوات المماليك على جيادهم، ثم بقية الجنود الأرناؤود فرساناً ومشاة، وسار الموكب ليخرج من باب العزب، وعبرت الفرقة الأولى بالفعل، وفجأة انغلق الباب غلقاً محكماً، وبسرعة خاطفة تسلق الألبان بأسلحتهم النارية قمم الصخور المجاورة للطريق بينما كانت جموع المماليك تتقدم نحو الباب ولا يدرون شيئاً مما يجري حولهم، وفي الوقت نفسه كانت صفوفهم الخلفية تواصل سيرها حتى إذا اكتمل عددهم انغلق الباب الذي دخلوا منه فأصبحوا محصورين في هذا الخندق الصخري الضيق..

و بلا مقدمات دوت طلقة نارية فكانت إشارة بدء المذبحة، وبعدها

انفتحت نيران بنادق الجنود الألبانيين عليهم من كل مكان، فلم يجد المماليك مكاناً يهربون إليه من هذا الجحيم المستعر، ولم يكن لديهم الوقت أو القدرة على الحركة أو الفرار لضيق المكان الذي حوصروا فيه، ولأنهم حضروا إلى الاحتفال بدون بنادق أو رصاص، ولم يكن معهم إلا سيوفهم البرّاقة التي لم تغن عنهم شيئاً بالطبع، وساعد دوي الرصاص على إثارة خيولهم فازداد هياجها وأخذت الخيل ترمي سادتها عن ظهورها وتدكهم دكاً بأقدامها وكأنها تنفذ دوراً مرسوماً لها في المؤامرة، ومن حاول منهم تسلق الصخور عاجلته رصاصة يهوي بعدها إلى الحفرة صريعاً أو جريحاً فتدهسه الخيل النافرة، أما الوحيد الذي نجا بحياته فهو "أمين" بك الذي كان في مؤخرة الركب، وما أن سمع دوي الرصاص حتى ركض بجواده نحو أسوار القلعة ثم لكز الجواد بقوة فهوى به إلى الوادي السحيق وتهشم الجواد ونهض الأمير فأطلق ساقيه للرياح في صحراء المقطم ولم يكف عن الجري حتى وصل إلى لبنان لائذاً بأميرها "بشير الشهابي"..

أحكم "محمد علي" تدبير المؤامرة، فلم يقف على سرّها إلا أربعة من خاصة رجاله، وهم "حسن باشا" قائد الجنود الأرناؤود، والكتخدا (نائب محمد علي) "محمد بك لاظ أوغلي"، و"إبراهيم أغا" حارس الباب، والضابط "صالح قوش" وهو الذي أمر بإغلاق باب العزب وأعطى إشارة القتل إلى رجاله..

وبينما كان "صالح قوش" يتأهب لتنفيذ المؤامرة كان "محمد علي" جالساً في قاعة الاستقبال وقد ظلّ في مكانه هادئاً حتى بدأ الموكب في التحرك، فساوره القلق والاضطراب، وساد القاعة صمت عميق، إلى أن

سمع إطلاق أول رصاصة إيذاناً ببدء المذبحة، فوقف "محمد علي" وامتقع وجهه وتنازعته انفعالات مختلفة، وأخذ يسمع دوي الرصاص وصيحات الذعر والاستغاثة، وهو صامت لا يتكلم إلى أن حصد الموت معظم المماليك، وأخذت طلقات البنادق في الخفوت، عندها قال له المسيو "ماندريشي" طبيبه الإيطالي الخاص "لقد قضي الأمر واليوم يوم سعيد لسموكم"، فلم يجب "محمد علي" بشيء، ولم يزد على أن طلب قدحاً من الماء..

لم تكن مذبحة القلعة هي نهاية هذه المأساة المروعة، فالمماليك الذين ذهبوا إلى احتفال القلعة وحصدهم رصاص الألبان لم يكن يزيد عددهم على 475 فقط، أما بقية المماليك فقد كانوا وقت المذبحة آمنين في قصورهم ولا يدرون شيئاً عما حدث لزعمائهم، وما أن انتهت مذبحة القلعة حتى انقض الجند الألبان على قلب القاهرة يذبحون المماليك في عقر دارهم ويستبيحون نساءهم وينهبون أموالهم، فقد كانت تعليمات الإبادة صريحة، وقد نفذ الألبان المهمة الموكولة إليهم بإتقان، ولم يسلم المصريون من هذه المحنة العصيبة، فأصابهم بعض ما أصاب المماليك من عمليات النهب والسلب وهتك الأعراض، فلم يفرق الجنود بين بيوت المصريين وقصور المماليك فاستباحوا كل ما تصل إليه أيديهم، واستمرت الفوضى ثلاثة أيام بلياليها، ولم تتوقف إلا بعد أن نزل "محمد علي" بنفسه إلى شوارع المدينة وتمكن من كبح جنوده وأعاد الانضباط إلى المدينة التعيسة.

وفي نفس الوقت الذي دارت فيه عمليات الإبادة في القاهرة كانت هناك عمليات مماثلة في الإسكندرية وبقية المدن التي يوجد فيها المماليك، ولم يفلت منهم إلا من أسعده الحظ بالهروب إلى الصحراء بحثاً عن كهف مظلم

أو قبر مهجور يأوي إليه، وانتهت عمليات الإبادة بمقتل 1000 مملوك ، فانطوت بذلك صفحة الأبطال الذين لم يعرفوا غير لغة الحرب، وكان أسلافهم هم من صدّوا طوفان التتار عن العالم في عين جالوت، وأسروا "لويس التاسع عشر" في المنصورة، وحرروا القدس من دنس الصليبيين، وقضوا على وجودهم من الشرق للأبد..

أما لماذا أقدم "محمد علي" على الفتك بالمماليك بهذه الطريقة الوحشية، فيذكر بعض المؤرخين أنه اضطر إلى ذلك بعد أن علم في فبراير 1811م وهو في السويس يشرف على إعدادات الأسطول المصري المتجه إلى الحجاز للمشاركة في الحملة الوهابية، أن المماليك يعدون خطة للفتك به عند عودته إلى القاهرة، فخرج "محمد علي" من السويس ليلاً في غير ميعاد عودته وتسلل إلى القاهرة دون أن يشعر به أحد، ولما تحقق "محمد علي" من غدر المماليك وخاصة بعد أن تسافر حملة الحجاز وتخلو البلاد من الجنود، حينها قرر القضاء نهائياً على المماليك، ولو سلمنا بصحة هذه الرواية مع ضعفها لكان التصرف الطبيعي إذن هو أن يعاقب "محمد علي" المسئولين عن تلك المؤامرة لا أن يفني المماليك جميعاً عن بكرة أبيهم بهذه الطريقة، إذن فمذبحة المماليك لا تزيد كما ذكرنا في البداية عن عملية تصفية حسابات مع جماعة سياسية منافسة اعتبرها "محمد علي" "محظورة" وخارجة عن القانون، ومن جهة أخرى فإن الفتك بالمماليك بهذه الصورة الرهيبة كما يقول "الرافعي" كان له أثر عميق في حالة الشعب النفسية، لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب في قلوب الناس، وكان من نتائجها أن استولت الرهبة على القلوب، فلم يعد ممكناً إلى زمن طويل أن

تعود الشجاعة والطمأنينة إلى نفوس الناس، فإذا فقد الشعب الشجاعة وحلت الرهبة مكانها كان ذلك نذيراً بضياع روح الكرامة الوطنية..

فالرهبة التي استولت على النفوس بعد مذبحة القلعة كان لها أثرها في إضعاف قوة الشعب المعنوية، إضافة إلى أن هذه الحادثة وقعت في الوقت الذي كانت فيه النفوس قد تطلعت إلى مراقبة ولاة الأمور ودبت فيها روح الحياة والديمقراطية وتعددت مظاهر هذه الروح بما تم من اجتماعات الشعب واحتجاجاته على المظالم، فجاءت مذبحة القلعة وقضت على هذه الروح إلى زمن طويل، وأحلت محلها روح الرهبة من الحكام، ولعل هذه الروح الجديدة جعلت "محمد علي" أكثر اطمئناناً على استبداده بالحكم، فلم يبدُ من الشعب في خلال السبع والثلاثين سنة التي قضاها على عرش مصر بعد تلك الحادثة روح معارضة أو محاسبة أو انتقاد..

"سليمان باشا الفرنساوي"..
"هكذا يكون التصويب يا غبي"!



لم تكن أهم إنجازات "محمد علي" باشا هي إصلاحاته الصناعية والزراعية، ولا بعثاته العلمية أو الإنجازات العمرانية العظمى التي تحققت في عصره، لكن أعظم إنجازات عصر "محمد علي" كان هو تكوين جيش مصري لأول مرّة منذ ما يزيد عن ألفي عام..

حاول "محمد علي" تأسيس جيش نظامي في عام 1815م، ولكن هذه المحاولة أخفقت وكادت تودي بمركزه لولا أن عدل عنها وأرجأها حتى يحين وقتها، ومنذ سنة 1820م أخذ يؤسس الجيش المصري النظامي، وكان الجيش قبل ذلك العهد أخلاطاً من العناصر المعتادة على التمرد

والفوضى، ويطلق عليهم "الباشبوزق" أي الجنود غير النظاميين، ومثل هذا الجيش لم يكن جديراً بالاعتماد عليه في رفع هيبة مصر والدفاع عن كيانها وتوسيع حدودها، لذلك أخذ "محمد علي" يفكر في إنشاء جيش على النظام الحديث مؤلف من صميم المصريين، ولكن الظروف لم تكن مناسبة، فكان يؤجل تنفيذ فكرته إلى أن تحين الفرصة المناسبة، وقد لاقى صعوبات كبيرة في تحقيقها، لأن الجنود غير النظاميين الذين كان يتألف منهم الجيش القديم كانوا معتادين على الفوضى ويكرهون كل نظام..

..واتجهت أنظار "محمد علي" إلى الفلاحين، وساقت إليه الأقدار ضابطاً فرنسياً من بقايا حروب "نابليون" اسمه الكولونيل "سيف"، فعهد إليه "محمد علي" بمهمة تكوين النواة الأولى من الضباط الذين سوف يعاونونه على تدريب الجنود المصريين، واختار له 500 من خاصة رجاله ليبدأ بهم، كما اختار له أسوان لتكون وكراً لهذه المهمة الشاقة، بعيداً عن مؤامرات "الباشبوزق" ومقاومتهم لكل جديد، واستغرقت عملية التدريب ثلاث سنوات ذاق فيها الكولونيل "سيف" الأمرين لتطويع هذه العناصر الفوضوية وتدريبها، واعتنق "سيف" الإسلام وأصبح اسمه "سليمان"، فزال الحاجز النفسي بينه وبين تلاميذه الضباط، وأظهر لهم من ضروب الشجاعة والصبر وسعة الصدر ما جعل حقدهم عليه ينقلب إلى حب واحترام وإجلال..

حدث مرة أن دبر تلاميذه مؤامرة لاغتياله أثناء التدريب على ضرب النار، فأطلق أحدهم عليه رصاصة فمست أذنه وأطاحت بقبعته، وبدلاً من أن ينتقم "سليمان" من القاتل، أمسك بالبندقية واتخذ مكان القاتل في

الصف، وأخذ يصوب الرصاص نحو الهدف وهو يردد: "هكذا يكون التصويب يا غبي" !! . وكان من الطبيعي أن تترك هذه التصرفات النبيلة أثرها في تلك النفوس الصخرية فأذابت من جمودها وغرورها، وبعد تكوين الدفعة الأولى من الضباط بدأت عملية البحث عن الجنود، وكان من الطبيعي أن تلقى دعوة التجنيد نفوراً وكراهية من المصريين، لبعد المسافة الزمنية بينهم وبين هذا الواجب الوطني، فضلاً عن الطريقة البشعة التي اتبعها رجال "محمد علي" لجمع الفلاحين، إذ كانوا ينقضون على القرى الآمنة ويأسرون كل من يقع تحت أيديهم من الشباب، ويسوقونهم في الحبال إلى معسكرات التجنيد في المدن، ولكن المشروع مضى في طريقه المرسوم، وبقى "سليمان باشا الفرنساوي" على رأس الجيش يعلم ويدرب وينظم وينشئ المدارس الحربية ويستدعي الخبراء من الخارج، ويرسل البعوث إلى أوربا لتتخصص في الفنون العسكرية، ولم يكن "سليمان باشا الفرنساوي" أقل من "محمد علي" إعجاباً بالفلاح المصري، فيذكر عنه أنه قال: "إن المصريين هم خير من رأيت من جنود، فهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد على المتاعب، مع انشراح النفس واستطاعتها تحمل صنوف الحرمان، وهم بقليل من الخبز يسيرون طوال النهار، ولقد رأيتهم في إحدى المعارك يبقون ساعات متوالية في خط النار محتفظين بشجاعة ورباطة جأش تدعوان إلى الإعجاب دون أن تختل صفوفهم أو يسري إليهم الملل أو يبدو منهم تقصير في واجباتهم الحربية"..

وتقديراً لجهود "سليمان باشا الفرنساوي" أطلق اسمه على أحد شوارع وسط البلد الشهيرة، وأقامت الدولة له تمثالاً في وسطه، وعندما

قامت ثورة يوليو المباركة ألقت بتمثاله إلى المتحف الحربي، وغيّرت اسم الشارع ليصبح شارع "طلعت حرب" !

ولما اتسعت دائرة التجنيد ولمس "محمد علي" نجاح تجربة تجنيد المصريين استدعى من فرنسا عدداً من كبار الضباط ليعاونوه على تنظيم الجيش المصري، كما أرسل عدداً كبيراً من الشباب إلى أوربا لإتمام دراستهم الحربية هناك، فعادوا إلى مصر بعد أن أتقنوا العلوم والفنون العسكرية، وحلوا في المدارس الحربية محل المعلمين الأجانب..

توالى إنشاء المدارس الحربية بعد مدرسة أسوان، فأنشئت عدة مدارس حربية في فرشوط بقنا وفي النخيلة وفي جرجا، وتلاهم عدد آخر من المدارس الحربية في القصر العيني والجيزة، وصنعت الأسلحة والبنادق والمدافع والذخائر بالقلعة، وعرفت بترسانة القلعة، وقد زار المارشال الفرنسي "مارمون" ترسانة القلعة سنة 1834م وأعجب بنظامها وأعمالها وكتب عنها في رحلته ما يلي: "تفقدت دار الصناعة بالقلعة فوجدت البنادق التي تصنع فيها بالغة من الجودة مبلغ ما يصنع في مصانعنا، والبنادق تصنع جميعها على الطراز الفرنسي، وتتبع دار الصناعة النظام نفسه الذي نتبعه نحن في تصريف العمل وتوزيعه والرقابة عليه، ومصنع القلعة يضارع أحسن مصانع الأسلحة في فرنسا من حيث الإحكام والجودة والتدبير".

ويقول "كادلفين وبارو" في كتابه حروب "محمد علي" ضد الباب العالي:

"إن العرب - يقصد المصريين- من سكان وادي النيل لم يكن لهم منذ

الفتح العثماني حق الانتظام في الجيش، ولكن محمد علي قد أعاد لهم هذا الحق، وهو بتجنيدهم قد رفع من شأنهم وانتشلهم من الوهدة التي نزلوا إليها، وقد استردوا سمعتهم بما أظهروه من الشجاعة في ميادين الحروب التي خاضوها".

وقال "كلوت بك" في كتابه "لمحة عامة إلى مصر":

"يعد المصريون أصلح الأمم لأن يكونوا من خيرة الجنود، لأنهم يمتازون بقوة الأجسام وتناسب الأعضاء والقناعة والقدرة على العمل واحتمال المشاق، ومن أخص مزاياهم العسكرية الامتثال للأوامر والشجاعة والثبات عند الخطر، والتذرع بالصبر في مقابلة الخطوب والمحن والإقدام على المخاطر والاندفاع إلى خط النار بلا وجل ولا تردد"

والمبهر حقاً أن الجيش المصري خلال عدة سنوات من إنشائه قد أصبح واحداً من أقوى جيوش العالم، وبلغ تعداده نحو 250 ألف جندي في أواخر عصر "محمد علي"، حتى إنه قد هزم جيوش الإمبراطورية العثمانية في أكثر من موقعة، بل وكاد "إبراهيم" باشا ابن "محمد علي" القائد العام للجيوش المصرية أن يحتل اسطنبول عاصمة الدولة العثمانية لولا أن تدخلت الدول الأوربية لمنعه من ذلك..

هل كانت مصر في عهد "محمد علي" دولة استعمارية؟!



تظل الحروب التي خاضها "محمد علي" موضع حيرة دائمة وتساؤلات لا تنتهي، وليس سبب تلك الحيرة هو عدم معرفتنا بدوافع "محمد علي" لخوض تلك الحروب في الحجاز والسودان وسوريا واليونان، فكلها كانت لتدعيم نفوذه ومركزه كحاكم، ولزيادة رقعة مملكته لتصبح إمبراطورية مترامية الأطراف، ولكن سبب الحيرة التي أشعر بها شخصيًا وأنا أقرأ هذه الصفحة من تاريخنا الحديث هو إحساسي بأن مصر كانت في إحدى فترات تاريخها تحت حكم "محمد علي" باشا دولة

استعمارية تتصرف بنفس عقلية الدول الاستعمارية الكبرى التي تتلخص في منطق القوة والمدنية، فلأن مصر حينها كانت أكثر بلاد الشرق قوة ومدنية، فإن ذلك يتيح لها فرض سيطرتها وحضارتها على كل ما يجاورها من البلاد والأقاليم ولو بالقوة، وهذا لم يتحقق منذ أيام الفراعنة إلا في عهد "محمد علي" ..

وللأمانة يجب أن نذكر أن الفتوحات المصرية في إفريقيا لا يمكن أن نشبهها مثلاً بالاستعمار الإنجليزي أو الفرنسي، فلم يكن هدف الحكومة المصرية حينها استنزاف موارد تلك البلاد بقدر ما كان هدفها هو تأمين حدود مصر وتدعيم مركزها الدولي، ولا يفوتنا أن نذكر الدور الحضاري والتنوير الفكري الذي لعبته مصر في كل الأقاليم التي شملها حكمها، وهو ما يختلف عن الاستعمار الأوروبي لإفريقيا الذي لم يكن في الأساس إلا للاستيلاء على خيرات تلك المستعمرات واستعباد أهلها..

ومع ذلك تبقى الحيرة والتساؤلات، هل يمكن أن يبرر الدور الحضاري الكبير الذي لعبته مصر في البلاد التي فتحتها أن تفرض سيطرتها "العسكرية" على تلك البلاد؟ أم نأخذ بمبدأ مصر أولاً وأخيراً ونبرر تلك الحروب والغزوات بأنها "هي التي مكنت مصر من تحقيق استقلالها القومي، ولولا تلك الحروب التي عززت مكانة مصر بين دول العالم لبقيت مصر ولاية تحكمها تركيا كما كانت تحكم سائر ولايات الدولة العثمانية فترسل لها حاكمًا كل سنة أو سنتين" كما يقول المؤرخ الكبير "عبد الرحمن الرافعي" ؟

يعد ضم السودان (1820-1822م) للسيادة المصرية من أهم الحروب

التي خاضتها مصر في عهد "محمد علي"، وكان لفتح السودان أهداف عديدة منها كشف مناجم الذهب والماس التي يتحدث الناس عن وجودها في السودان، وإمكان تجنيد السودانيين في الجيش المصري النظامي لما اشتهر به السودانيون من الصبر والشجاعة والطاعة للرؤساء، إضافة إلى رغبة "محمد علي" في التخلص من الفرق الباقية من عسكر الأرناؤود (الألبانيين) وغيرهم من الجنود غير النظاميين ممن لم تهلكهم حروب جزيرة العرب وعادوا إلى مصر يثيرون الفتن والقلاقل كعادتهم، وكان من أهدافه أيضاً القضاء على البقية الباقية من المماليك الذين هربوا إلى دنقلة بعد مذبحة القلعة، إضافة إلى أن "محمد علي" كان يرمي إلى توسيع رقعة مصر من جهة الجنوب وإيجاد الروابط الاقتصادية بين مصر والسودان وضمان سلامة مصر والاطمئنان على منابع النيل، وفي هذا يقول اللواء "إبراهيم باشا فوزي" في كتابه "السودان بين جوردون وكتشنر": "إن محمد علي تخلص من ورطتين كبيرتين عندما فتح السودان، فقد علمت من شيخ ذي منصب معاصر لمحمد علي باشا أن دولة أوربية كانت تسعى لمعارضته باحتلال منابع النيل، فاهتم الباشا لهذا الخبر، واستشار كثيراً من المهندسين الأوروبيين الذين جاء بهم، فاقروا بالإجماع أن وقوع منابع النيل تحت براثن هذه الدولة مما لا تحمد عقباه حيث تصير حياة مصر في يدها، ومن هنا صمم الباشا على إرسال الحملة إلى السودان"

ومن الواضح أن تلك الدولة التي يشير إليها "فوزي باشا" في كتابه هي إنجلترا، ففتح السودان إذن ـ كما يرى "عبد الرحمن الرافعي"ـ كانت حرباً دفاعية الغرض منها المحافظة على كيان مصر وسلامتها وتحقيق وحدة وادي النيل .

أعد "محمد علي" جيشاً لفتح النوبة والسودان وتعقب المماليك الفارين، وجعل قائد الجيش نجله "إسماعيل باشا"، وتحركت الحملة المصرية في يوليو سنة 1820م وفتحت دنقلة ثم أم درمان وتوالى فتح المدن السودانية إلى أن وصل الجيش إلى (قرية) الخرطوم، وكانت لا تتكون من أكثر من 10 بيوت من الغاب، فحولتها الحكومة المصرية إلى مدينة كبيرة أصبحت عاصمة السودان ومنبع الحضارة والعمران فيه .

والحقيقة أننا لا نستطيع أن ننكر أنه قد حدثت العديد من التجاوزات والممارسات الوحشية أثناء حرب السودان، أشهرها عندما أرسل "إسماعيل باشا" لأبيه 300 زوج من آذان المتمردين المقطوعة، وهو ما أثار انزعاج "محمد علي" بشدة، فأرسل يؤنب ابنه ويخبره أنه كان من الأفضل أن يكسب ثقة واحترام من يحاربهم بتطبيق العدل بدلاً من قطع آذانهم، ولم يستمع "إسماعيل" لنصائح والده وواصل أعماله الاستفزازية، والتي كان آخرها عندما أهان الملك "نمر" حاكم بلدة "شندي"، و أمره أن يسلمه 1000 عبد في خلال يومين، فقرر "نمر" أن ينتقم، فدعاه إلى المبيت في بلدته، وجمع كمية ضخمة من القش بدعوى أنها تصلح كعلف لخيول "إسماعيل باشا"، وأثناء الليل أضرم النار في القش وأحرق "إسماعيل" حياً هو وحاشيته، وهرب بعدها الملك "نمر" إلى الحبشة، ولم يستطع "محمد بك الدفتردار" أن يلحق به، و لم يجد أمامه سوى "شندي" بلدة "نمر"، فأحرقها عن بكرة أبيها..

وبفتح السودان اتسعت رقعة الدولة المصرية ووصلت حدود السودان المصري شرقاً إلى البحر الأحمر، وكذلك دخلت سواكن ومصوع (التي تقع

في إريتريا الآن) في حدود السودان المصري بعد أن استأجرهما "محمد علي" من السلطان العثماني، أما من جهة الجنوب فقد بلغت الحملات التي أرسلها "محمد علي" جنوباً إلى جزيرة (جونكر) في أقصى جنوب السودان، ولم تتعدّ الفتوحات هذه النقطة لعدم تخطي الكشوف الجغرافية هذه الجهة، أما ما بعد جزيرة (جونكر) وهو الإقليم المعروف باسم مديرية خط الاستواء وأوغندا فقد ضمته مصر إليها بعد ذلك في عهد الخديو "إسماعيل" !

أسست مصر في السودان حكومة منتظمة كان لها الفضل الكبير في نشر الأمن والأمان في ربوع السودان، ولم ينظر للسودان في يوم من الأيام على أنه مستعمرة للاستغلال، بل نظر إليه دائماً على أنه جزء من الوطن المشترك، فاهتمت مصر بعمرانه ونهضته تماماً كما كانت تهتم بعمران الغربية أو الدقهلية أو غيرهما من المديريات المصرية الأخرى، حتى إن اللواء "محمد نجيب" أول رئيس لجمهورية مصر العربية ولد في إحدى مديريات السودان كما ذكر في مذكراته، ومهما اختلف الكتاب الأوربيون في تقدير الحكم المصري في السودان، فإنهم مجمعون على دور مصر في نشر الأمن والاستقرار في السودان، فقد كانت الرحلة إلى السودان قبل الفتح المصري محفوفة بالأخطار، إذ كانت الطرق مقطوعة وسلطة رؤساء القبائل ضعيفة، وكانت قوافل التجار والحجاج هدفا دائما للسلب والنهب، فجاء الحكم المصري لينهي هذه الفوضى وينشر الأمن في ربوع السودان، وكان من نتائج ذلك نشاط المعاملات التجارية في أنحاء السودان، وبين مصر والسودان، ومن نتائج ذلك أيضاً تنظيم البريد، وكان ينقل في السفن ثم يحمل على الجمال فيرسل إلى مصر وإلى جميع مديريات السودان، وكانت

الرسائل تصل من مصر إلى الخرطوم مرتين في الشهر، ويعتبر هذا في حد ذاته أحد إنجازات "محمد علي"، يقول المسيو "جومار" المقيم بفرنسا: "من ذا الذي كان يظن قبل أربعين عاماً أو حتى قبل خمسة عشر عاماً أن تصلنا الرسائل من ضفاف النيل الأبيض إلى ضفاف السين في باريس في اثنين وثلاثين يوما فحسب؟!".

وكان للفتح المصري للسودان فضل كبير على العلم والعمران مما شجع العلماء والباحثين الأجانب على القيام بالرحلات العلمية لاستكشاف بقاع السودان البعيدة وخاصة منابع النيل، وقد كان "محمد علي" يهتم اهتماماً كبيراً بالرحالة والمستكشفين، فكانت الحكومة المصرية في السودان ترعاهم وتوفر لهم كل ما يلزمهم، وصارت الخرطوم مركزاً للرحلات الجغرافية التي انطلقت منها لكشف منابع النيل ووسط إفريقيا، فللحكم المصري في السودان فضل كبير على الاستكشافات الجغرافية التي تمت في ذلك العهد، وهذه الاستكشافات هي التي مهدت الطريق بعد ذلك لكشف منابع النيل بأكملها سنة 1862م ..

فهل يمكننا اعتبار كل ذلك غزوا؟!

"محمد بك الدفتردار".. عبد المأمور الدموي!



كثيرة هي المواقف التي تضعك في موقف صعب ويكون فيها الخيار بين شيئين، حياتك أو مستقبلك في كفة، وحياة الآخرين ومستقبلهم في كفة أخرى، بمعنى آخر، الاختيار بين أن تعيش حراً شريفاً، أو أن تكون مجرد عبداً مأموراً، والمشكلة الحقيقية فيمن يتنازل مرة واحدة عما يؤمن به في سبيل لقمة العيش أنه سيظل طوال حياته عبداً ينفذ ما يطلبه منه أسياده مهما كان، دعونا مثلاً نقرأ معاً ما ذكره المؤرخ الكبير "جمال بدوي" في كتابه الممتع "مصر من نافذة التاريخ" نقلاً عما ذكره "إلياس الأيوبي"

في كتابه "تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل" عن "محمد بك الدفتردار"..

كان "محمد بك الدفتردار" أحد رجال "محمد علي" الأقوياء الذين استعان بهم الباشا في تدعيم حكمه في مصر، وإحكام قبضته على شعبها، والذين وصلوا إلى مصر جنوداً في الجيش العثماني الذي وصل إلى مصر بعد جلاء الحملة الفرنسية عنها ليصبحوا سادة البلاد والمتحكمين في خيراتها ، وكان "الدفتردار" عاشقاً للدماء ولا يتورع عن ارتكاب أبشع المذابح لأتفه الأسباب ولا ينسى له التاريخ المذابح التي ارتكبها أثناء فتحه للسودان، فكان مجرد ذكر اسمه يثير الفزع والرعب في نفوس الناس، وكان "محمد علي" يستخدم أمثال "محمد بك الدفتردار" لفرض سيطرته وإحكام قبضته على ربوع مصر ولمنع تمرد المصريين عليه، ولكي يضمن "محمد علي" ولاءه إلى الأبد زوجه من ابنته "زهرة هانم"، فأصبح واحداً من أعضاء أسرة "محمد علي"..

وحدث عندما كان "الدفتردار" يطوف على بعض القرى أن تقدم أحد الفلاحين البسطاء عارضاً شاكياً، وذكر أنه قد تأخر في سداد الضريبة المستحقة عليه وقدرها 60 قرشاً ولكن ناظر الأرض أصر أن يدفعها، فاستولى على بقرته الوحيدة وأمر جزار القرية أن يذبحها ثم قسمها 60 جزءاً وأمر بتوزيعها على الفلاحين بواقع قرش واحد للجزء، وأعطى الجزار رأس البقرة لقاء عمله، وبعد أن جمع المبلغ ترك الفلاح المسكين دون أن يتذوق حتى قطعة واحدة من لحم البقرة التي كان يعتمد عليها في زراعته وكانت تساوي ضعف المبلغ الذي جمعه الناظر، فلما فرغ الفلاح

من قصته مضى "الدفتردار" إلى قرية الفلاح، وأطلق المنادي يطلب من أهلها التجمع على الفور، والتف الفلاحون المذعورون في شبه حلقة بينما بعث "الدفتردار" في استدعاء الناظر والجزار الذي ذبح البقرة، ثم أمر الجند بتكبيل الناظر بالحبال وإلقائه في وسط الحلقة، وقال للجزار: "كيف سمح لك ضميرك بذبح بقرة هذا الفلاح المسكين وهي كل ما يملك في هذه الدنيا؟" فارتعد الجزار وقال للـ"دفتردار": "إني يا مولاي عبد مأمور ولم أفعل سوى ما أمرني به الناظر"، فسكت "الدفتردار" قليلاً، قبل أن يقول للجزار: "لو أمرتك إذن بأن تذبح الناظر مثلما ذبحت البقرة فهل ستفعل؟"، فقال الجزار على الفور: "لقد قلت يا مولاي إني عبد مأمور أطيع الأوامر التي تصدر إليّ من سادتي"، عندئذ صرخ "محمد بك الدفتردار" في وجه الجزار: "إذن فإني آمرك أن تذبح الناظر"، فانقض الجزار على رقبة الناظر فذبحه حتى فصل رأسه عن جسده، وسط ذهول أهل القرية، وبعد أن فرغ الجزار من مهمته، أمره "الدفتردار" بأن يقطع الجثة 60 قطعة من غير الرأس، وبالفعل قام الجزار بتقطيع جثة الناظر، وهنا صاح "الدفتردار" في الأهالي: على كل منكم أن يشتري قطعة ويدفع قرشين، ونفذ الأهالي الأمر، وأخذ كل منهم قطعة من لحم الناظر ودفع قرشين، فلما تجمع مبلغ 120 قرشاً أعطاها "الدفتردار" للفلاح كي يشتري بها بقرة جديدة، ثم قال للجزار: "كما أنك أخذت رأس البقرة جزاء لك على تعبك، فخذ رأس الناظر جزاء لك على تعبك في ذبحه وتقطيعه"، وانصرف "محمد بك الدفتردار" عن القرية بعد أن طبق العدل فيها بطريقته الخاصة!

"علي باشا مبارك"..
كوكتيل العبقرية والمواهب المصرية!



"يكاد علي مبارك أن يكون أعظم رجال البعثة التي ذهبت إلى فرنسا سنة 1844م علماً وعملاً وآثاراً، بل يكاد يكون أعظم رجال عصره في مصر، والآثار التي تركها تزيد من مكانته السامية، وتعلي من قدره على مر الأيام، وهي وحدها أصدح لساناً في الثناء عليه"

الأمير "عمر طوسون"

لن أبالغ عندما أقول إنني أتوقف مندهشًا كلما قرأت قصة حياة ذلك الرجل العجيب ، ربما لأنه رجل متعدد المواهب بطريقة محيّرة، وقد يكون استخدام كلمة (متعدد المواهب) غير دقيق مطلقاً مع هذا الرجل، فهو ليس مجرد شخص (موهوب)، ولكنه بلا مبالغة (علاّمة) بمعنى الكلمة، فهو معلم (حقيقي) ومؤرخ ثقة ومهندس قدير وأديب عظيم وقائد حربي مغوار، وربما يكون من الصعب أن نتخيل أن شخصًا واحدًا قام بكل هذه الأعمال المختلفة معًا: فهو الذي أشرف على إعادة تنظيم القاهرة لتكون عاصمة الدولة التي أرادها الخديو "إسماعيل" قطعة من أوربا، وعندما تولى قلم الهندسة أنار القاهرة ليلاً لأول مرّة بعد أن كان الظلام يخيم عليها بعد الغروب كأي نجع أو كفر من الكفور التي لا مكان لها على الخريطة!، وحين تولى وزارة الأشغال كان هو من تعاقد مع إحدى الشركات الفرنسية لبناء كوبري "قصر النيل" شخصيًا.. و"علي مبارك" هو مؤسس كلية دار العلوم، وهو الذي فكر وأنشأ هذا المشروع العملاق: دار الكتب المصرية التي جمع فيها التراث الفكري الذي كان موزعًا بين المساجد والكتاتيب والمدارس والمكتبات الخاصة الصغيرة، وهو مؤلف أول رواية عربية تعليمية على الإطلاق وهي رواية "علَم الدين"، وهو الذي أحيا فن "الخطط" الذي انتهى بعد "خطط المقريزي"، والخطط هي أحد الفنون التي تفرد العرب بها، وهي عبارة عن تأريخ للحياة والمجتمع مع رصد العوامل المؤثرة في تطور المجتمع، وجاءت خطط "علي مبارك" في 20 مجلدًا كبيرًا!!

وحياة "علي باشا مبارك" مليئة بالتفاصيل والتقلبات التي لا نستطيع أن نحيط بها كلها هنا للأسف، ولكن ما يهمنا الآن هو: كيف استطاع "علي

مبارك" أن يتعلم كل هذه العلوم والمعارف وقد نشأ في مصر التي كان أكثر من 90 % من أهلها أميًا لا يعرف القراءة والكتابة، وهل من الصعب فعلاً أن تنجب مصر رجلاً كـ"علي مبارك" مرّة أخرى؟

ولد "علي مبارك" سنة 1823م في قرية تسمى "برنبال" تتبع اليوم محافظة الدقهلية، وكانت عائلة "علي مبارك" تتوارث مهنة غريبة بعض الشيء أبًا عن جد، وهي مهنة (الفقه)! فقد كان والد "علي مبارك"، في القرية هو الذي يؤم الناس في الصلاة ويخطب في أيام الجمع والأعياد، إضافة إلى عمل المأذون والقضاء والحكم بين الناس، أو كما يقول "علي مبارك": "سمعت من أبي أن عائلتنا شريفة، ثم وجدت في أمتعة والدي رحمه الله بعد وفاته نسبة الشرف، فما وجدت فيها أحدًا من أجدادي قد احترف حرفة من الحرف" !! ، وكان الشيخ "مبارك" قد عزم على أن يورث مهنة آبائه وأجداده هذه إلى ابنه "عليّ"، ولكن كان لابنه الصغير رأي آخر كما سنرى!

وحدث أن انتقل الشيخ "مبارك" بعائلته من "برنبال" إلى قرية أخرى تسمى "السماعنة" وأهلها من القبائل العربية، ولما لم يكن في تلك القرية فقيه، فقد استقبلوا الشيخ "مبارك" أحسن استقبال، وبنوا له مسجدًا أصبح هو إمامه وخطيبه!، وقرر الشيخ "مبارك" أن يرسل ابنه إلى كتّاب في بلدة مجاورة ليحفظ القرآن الكريم - أول أساسيات عمل الفقيه - ، وبالفعل أرسله إلى مكتب الشيخ "احمد أبو خضر" في قرية مجاورة، يقضي فيها الأسبوع بأكمله، ثم يعود إلى "السماعنة" يومًا واحدًا في الأسبوع، وهكذا قضى "علي مبارك" سنتين من عمره حتى حفظ القرآن الكريم كاملاً وعمره

حوالي 8 سنوات، ولكنه - وفي هذه السن المبكرة – رفض أن يذهب إلى المكتب مرّة أخرى، لسوء معاملة الشيخ "أبو خضر" لتلاميذه ولما كان يفرضه عليهم من إتاوات! ، يقول "علي مبارك" : "إني إلى الآن راسخ في ذهني ما كان يفرضه عليّ مؤدبي (أبو خضر) في صغري، أن آتي له بشيء من المنزل، فكنت أتحايل تحايل اللصوص حتى أختلسه وآتيه به، وإن امتنعت أو أتيت بأقل مما طلب مني توعدني أو ضربني، كان أحيانًا يعاملنا معاملة الخدم، فمنا من يخدم زوجته فيملأ لها الزير ويكنس البيت وينفض الحصير، ومنا من يخدمه، فهذا يهيئ له غذاءه ويفلّيه (!!)، وهذا يجمع له النوى من السوق، وهذا يجمع القوالح للقهوة، وهكذا" !

وأمام رفض "علي مبارك" القاطع للرجوع إلى الشيخ "أبو خضر"، قرر والده أن يقوم بالتدريس له بنفسه، ولكن لانشغاله الدائم، أراد الأب أن يعيده إلى مكتب أبو خضر من جديد، فيثور (الطفل) "علي مبارك" ويهدد بأنه سيهرب من المنزل إذا أعادوه إلى المكتب من جديد، بل وأكثر من ذلك، يرفض أن يكون (فقيهًا) في يوم من الأيام، بل يريد أن يكون كاتبًا حكوميًّا!!

ويوافق الأب على مضض، ويرسل ابنه إلى صديق له يعمل كاتبًا في بلدة مجاورة لكي يتعلم منه فنون الكتابة، ولكن حظه مع الكاتب لم يكن أفضل من حظه مع الشيخ، فكان يسيء معاملته، فكثيرًا ما كان الطفل ينام بلا طعام، وكان يقضي أغلب وقته في خدمة الكاتب وزوجاته الثلاث، فما كان من "علي مبارك" إلا أن هرب من الكاتب إلى بلدة المطرية، حيث كانت تقيم إحدى خالاته هناك، وفي الطريق أصيب بمرض الكوليرا وخارت قواه في الطريق، فعثر عليه رجل لا يعرفه واصطحبه إلى منزله، وعندما شفي

"علي مبارك" أخيرًا من مرضه بعد 40 يومًا، سأله الرجل عن أهله، فادعى الطفل أنه يتيم الأب والأم حتى لا يرجع لجحيم الكاتب أو الكتّاب !

وخلال هذه الفترة كان أهله يجوبون القرى باحثين عنه، وعندما عثروا عليه، كان رد فعله أن فرّ هاربًا منهم! ، وبعد عدة مغامرات استطاع أهله أن يسترضوه وعاد معهم إلى المنزل، وأخذ "علي مبارك" بنصيحة أبيه - بعد مضي عام تقريبًا- وقبل أن يعمل مساعدًا لكاتب الزراعة في مأمورية "أبو كبير" بمحافظة الشرقية، وكانت كل مهمته هناك هي أن يقوم بتبييض الدفاتر مقابل 50 قرشا في الشهر!، ومن جديد يعامله ذلك الكاتب بعنف ويحرمه من راتبه الشهري، فما كان من "علي مبارك" إلا أن أخذ راتبه "بنفسه" عندما ناب يومًا عن الكاتب في تحصيل النقود من "أبو كبير"، وقدم المتبقي إلى الكاتب الذي اغتاظ غيظًا شديدًا وأخذ يترقب فرصة للانتقام !

وجاءته هذه الفرصة على طبق من ذهب عندما كانت الشرطة تبحث عن أحد الهاربين من التجنيد، فقرر الكاتب تسليمه للشرطة بدلاً من ذلك الهارب، بالطبع كان هذا ممكنًا جدًا في عصر لم يكن فيه أي وجود لأوراق إثبات الشخصية، ويقبض على "علي مبارك" ويمكث في السجن 20 يومًا لا يكف فيها عن البكاء، حتى يرق قلب السجان ويستمع إلى قصته، ويشاء الله أن يأتي بعدها أحد أصدقاء السجان لزيارته، ويخبره بأن مأمور زراعة القطن في أبو كبير يبحث عن كاتب حسن الخط ، فيرشح له السجان "علي مبارك"، وبسرعة يأتي قرار المأمور بالإفراج عن "علي مبارك" بعد أن يعجبه خطه!

وعندما يذهب للقاء "عنبر أفندي" ـ المأمور ـ ، يفاجأ الطفل بأنه حبشي أسود اللون!، والأعجب من ذلك أن جميع أعيان البلدة يقفون أمام "عنبر أفندي" بخضوع، بل إن منهم من يقبل يديه!، وكان هذا مشهدًا غريبًا للغاية في مجتمع يحكمه الأتراك بالأساس، وأخذ "علي مبارك" يحاول أن يعرف "السر" في كل هذه الحظوة التي يتمتع بها "عنبر أفندي"، فعرف أن "عنبر" كان عبدًا حبشيًّا تمتلكه إحدى الهوانم المقتدرات، فأعتقته وألحقته بمدرسة قصر العيني، وبهذا انفتح له الطريق إلى المناصب الحكومية..

وحين سأل "علي مبارك" هل يمكن لأحد من أبناء الفلاحين أن يلتحق بتلك المدرسة، عرف أن ذلك ممكن، ولكن يلزمه "واسطة" لذلك!، فزاد اهتمامه أكثر وأكثر بالمدرسة، وأخذ يجمع المعلومات الدقيقة عن قصر العيني، وعن الطريق الذي "سيسير" فيه على قدميه من أبو كبير إلى قصر العيني! وبعد أن جمع كل هذه المعلومات، طلب من "عنبر أفندي" إجازة لمدة أسبوعين، وشد الرحال إلى القاهرة سيراً على الأقدام !!

وبعد عدة أيام من "السير" وصل إلى قرية صغيرة، ووجد بها عددًا من الغلمان يستريحون تحت شجرة، ووجد مع كل واحد منهم دواة وأقلامًا، إذن فهم تلاميذ في كتّاب، ويستعلم منهم، فيعرف أنهم تلاميذ في مدرسة أولية نظامية في قرية تسمى "منية العز"، والأهم من ذلك أنه يكتشف أن الطريق إلى قصر العيني يبدأ من هذه المدرسة، وأن المتفوقين في المدرسة يذهبون تلقائيًّا إلى مدرسة قصر العيني بلا واسطة، فيذهب "علي مبارك" لمقابلة ناظر المدرسة، فيجده واحدًا من معارف أبيه! ، وبدافع من هذه الصداقة

يحاول الناظر أن يمنع "علي مبارك" من الالتحاق بالمدرسة والسير في هذا الطريق المجهول(!!) ولكن الطفل يصر، فيتظاهر الناظر بالموافقة، ولكنه يرسل إلى الشيخ "مبارك" لكي يتصرف بطريقته مع ابنه غريب الأطوار الذي يفضل إضاعة وقته في التعليم عن وظيفة (الفقي) الذي يقبل الجميع يديه !

ويسرع الشيخ "مبارك" مع أبنائه إلى منية العز، ويحاولون إقناع "علي" بلا فائدة بالعودة معهم، وعندما يفشلون في إقناعه، يقومون باختطافه وإعادته قسرًا إلى البيت، حيث يقضي عدة أسابيع في رعي الأغنام بعد أن تظاهر أنه قد أزال فكرة المدرسة من عقله إلى الأبد !! ، ولكنه يهرب من أسرته ويرجع من جديد إلى مدرسة منية العز، ويقرر ألا يغادرها نهائياً حتى لا يتعرض للخطف مرّة أخرى! ويحضر إلى المدرسة الصغيرة أحد المندوبين من القاهرة لكي يختار المتفوقين من الطلبة ليأخذهم إلى مدرسة قصر العيني، ويكون "علي مبارك" من ضمن المختارين، وفي تلك اللحظة يدخل الشيخ "مبارك" ويترجاه أن يترك "علي"، فيخير المندوب الطفل الصغير بين أن يظل وسط أهله أو أن يذهب إلى مدرسة قصر العيني، فيختار المدرسة ! ويلتحق "علي مبارك" أخيراً بقصر العيني، ويكون عمره حينها 12 سنة !!!

كل هذا "الكفاح" الشاق والسجن وتكرار الهروب للالتحاق بالمدرسة من طفل عنده 12 سنة فقط؟!

ولكن أحلام "علي مبارك" كلها تتحطم في قصر العيني! فلم يكن القصر هو الجنة الموعودة التي طالما حلم بها ، ولكنه وجد أن الاهتمام

"بالمشي العسكري" هو أهم شيء في المدرسة!، إضافة إلى أن أنواع الإهانات التي تعرض لها "علي مبارك" في المدرسة لا تعد ولا تحصى، فقد كانت مدرسة قصر العيني مدرسة عسكرية، وقد أدت المعاملة السيئة التي كان يلقاها "علي مبارك" في المدرسة وانعدام الرعاية الصحية بها إلى إصابته بالعديد من الأمراض، على رأسها الجرب (!!)، وفي المستشفى لم تكن الحالة أفضل، فقد كان – كما يقول "علي مبارك" - يمص عظام اللحم التي يلقى بها المرضى الأغنياء!!

وفي يناير سنة 1837م ألغيت المدرسة الجهادية من قصر العيني، وحلت محلها مدرسة الطب ، وانتقل "علي مبارك" مع تلاميذ المدرسة الملغاة إلى المدرسة التجهيزية بأبي زعبل، والتي كانت الدراسة مشوقة فيها مقارنة بمدرسة قصر العيني، وبعد عدة سنوات قضاها "علي مبارك" في المدرسة التجهيزية، التحق بالمهندسخانة (كلية الهندسة)، وقضى فيها 5 سنوات كاملة كان فيها أول فرقته باستمرار، مما أهله بعد تخرجه سنة 1844م للسفر إلى فرنسا ضمن آخر بعثة علمية بعث بها "محمد علي" باشا إلى فرنسا، وبعد نحو 6 سنوات عاد "علي مبارك" إلى مصر وليبدأ مشواره في تطوير المجتمع المصري بأكمله ..

"علي مبارك"..

أبو التعليم الذي صدر القمح لأمريكا !



"وقد تحقق لي نتيجة ما صرفته من الهمة في تربيتهم والشفقة عليهم، حتى إنه لما تولى سعيد باشا ودعيت للسفر مع العساكر لمحاربة المسكوف (الروس) مع الدولة العلية (الدولة العثمانية)، خرج جميع التلامذة، كبيرهم وصغيرهم من المدارس لوداعي، وجعلوا يبكون وينتحبون انتحاب الوالد على ولده، حتى بكت عيني لبكائهم، ولكن انشرح صدري لمشاهدة ثمرات غرسي وآثار تربيتي، فالحمد لله".

"علي باشا مبارك"

احتار المؤرخون عندما أرادوا أن يصنفوا "علي مبارك"، واختلفت آراؤهم فيه: هل هو مهندس أم أديب أم مؤرخ وعالم اجتماعي أم سياسي ورجل دولة؟ نعم هو مهندس عبقري، تشهد بذلك قدرته الفائقة على إصلاح العيوب الفنية التي ظهرت في القناطر الخيرية - التي بنيت بإشراف فرنسي بالمناسبة- وأصبح مسئولاً عاماً عنها بعد أن كانت منذ إنشائها من مسئولية مهندسين فرنسيين، إضافة إلى أنه صاحب فكرة مشروع خزان أسوان وبناء السد العالي !

وهو أديب بارع، وهو بالإضافة إلى ذلك كله رجل دولة من الطراز الأول، فقد أصبح وزيراً عدة مرات، ولعدة وزارات مختلفة في وقت واحد كما سنرى، ولكن ما أميل إليه حقاً أن عبقرية "علي مبارك" الحقيقية تكمن في مجال آخر غير الهندسة العسكرية التي درسها، عبقريته الحقيقية - في رأيي الخاص- كانت في إصلاح التعليم أو بنائه من الصفر للدقة، فـ"علي مبارك" هو "أبو التعليم" في مصر عن جدارة، وربما يكون ذلك بسبب ما لاقاه من معاناة في طفولته لكي يتم تعليمه، فبعد عودة "علي مبارك" لمصر بعد نحو 6 سنوات قضاها في فرنسا تنقل بين الوظائف الحكومية، وكعادة تلك الأيام في عدم الاستقرار باعتبار أن الوظائف العليا في الدولة كانت – ومازالت– تخضع لمزاج الحاكم الشخصي بدون اعتبار للكفاءة من قليل أو كثير، فكان "علي مبارك" يصل إلى أعلى مناصب الدولة، وبوشاية صغيرة يجد نفسه عاطلاً بلا عمل في منزله بين يوم وليلة، حتى إنه قد (نُفي) بعيداً عن مصر إلى روسيا أيام حكم "سعيد باشا" وذلك بدعوى المشاركة في حرب القرم إلى جانب الدولة العثمانية!!

على أية حال فإن التاريخ يخبرنا بأن "علي مبارك" قد بلغ ذروة نشاطه في عهد الخديو "إسماعيل"، فأصبح ناظراً للأوقاف وناظراً لديوان عموم الأشغال، وناظراً لديوان المدارس (التربية والتعليم) ومسئولاً عن مصلحة السكة الحديد، كل هذا في وقت واحد، ولو عرفنا أن كلمة (ناظر) تساوي بلغة ذلك الزمن منصب (وزير) لأمكننا تخيل مدى عبقرية هذا الرجل، وليستطيع أن يقوم بكل هذه المسئوليات دون أن يخل بأي منها، أنشأ مجمع نظارات (وزارات) في مكان واحد، حيث جمع الوزارات الأربع في سراي بدرب الجماميز، فكان يقسم وقته بالتساوي بين هذه الوزارات، وأوكل إليه الخديو "إسماعيل" تنظيم حفل افتتاح قناة السويس سنة 1869م ويشمل ذلك تهيئة الطرق والمواصلات والقصور التي سيقيم بها حكام العالم الذين وفدوا إلى مصر للمشاركة في الاحتفال، وقد قام "علي مبارك" بكل هذا بطريقة رائعة نالت إعجاب الجميع، وقد أدت الإصلاحات التي قام بها "علي باشا مبارك" في مجال الزراعة واستخدام طرق الري الميكانيكية الحديثة إلى طفرة زراعية كبيرة، حتى إن مصر كانت تصدر الحبوب إلى أوربا والولايات المتحدة الأمريكية !

ولن نستطيع هنا أن نتحدث عن جميع إصلاحاته، ولكن سنهتم بإصلاحاته في مجال التعليم وحسب، لقد كان التعليم المدني الذي أنشأه "محمد علي" في مصر تعليما أساسه الجيش، فالمدارس الحربية لتخريج جنوده، ومدرسة الطب لتخريج أطباء يرعون الجيش، والهندسة لتصميماته، والبعثات لتعلم فنون الحرب لرفع كفاءة الجيش، حتى إن المدارس الإلزامية كان الطلبة والجنود فيها يحملون رتبا عسكرية! ، وكان

هذا التعليم متركزاً في الأساس في القاهرة والإسكندرية، أما الأرياف فتقريباً كانت خالية من هذه المدارس، وبجانب هذا التعليم، كان هناك تعليم آخر يبدأ بالكتاب وينتهي بالأزهر الشريف، وهذا التعليم لا تهتم به الحكومة ولا تتدخل فيه ولا يهمها أمره أصلاً، وكان ما فعله "علي مبارك" في عهد الخديو "إسماعيل" هو أن حوّل التعليم من وجهة حربية إلى ثقافة شعبية، فنراه عندما يصبح (ناظراً) للتعليم يقوم بعمل حصر لكل الكتاتيب الموجودة في مصر، ويصف صلاحية كل كتاب للاستخدام، وعدد التلاميذ الذي يمكن أن يستوعبه، وعالج جميع مشاكلها، بل وقام بتحويل الكتاتيب الكبيرة إلى مدارس ابتدائية، وبعد أن توفرت المدارس، وعلى طريقة شيء لزوم الشيء، بقيت أمام "علي مبارك" مشكلة المدرسين الذين سيعلمون التلاميذ، ففكر في خريجي الأزهر، ولكنه وجد أن طريقة تدريسهم جافة، وأكثرهم لا "يفهم" ما درسه فهماً حقيقياً بقدر ما "يحفظه" عن ظهر قلب!

ومن هنا قرر "علي مبارك" أن ينشئ "مدرسة" عليا لتخريج مدرسين مؤهلين لتدريس التلاميذ بطريقة تربوية سليمة لا تشبه الطريقة التي تعلم بها هو شخصياً! فـ"علي مبارك" لم يدرس قواعد التربية في مصر أو فرنسا، ولكنه فهم جيداً طرق التربية الصحيحة وتعلمها على يد الشيخ "أبو خضر" وعلى يد الكتبة الذين عاش بينهم أقسى أيام حياته، ولم ينسَ "علي مبارك" أبداً كاتب الزراعة الذي سأله يوماً عن حاصل ضرب 1 في 1، ولما أجابه بسذاجة: 2، قذفه الكاتب بمحمصة البن فجرحت رأسه وأسالت دمه!

وبهذا خرجت إلى النور مدرسة دار العلوم، لتجمع بين علوم التراث وعلوم العصر الحديث، كالرياضيات والجغرافيا وغيرها، وكانت دار العلوم

حينها صرحاً عملاقاً لتدريس المواد الشرعية والعلوم الدنيوية لدرجة أن الشيخ "محمد عبده" فكر ذات يوم في أنها من الممكن أن تكون بديلاً في يوم من الأيام للأزهر الشريف!

لقد كان "علي مبارك" (معلماً) حقيقياً يرى أن واجبه هو أن يأخذ بيد أي إنسان ليخرجه من ظلام الجهل والأمية إلى نور المعرفة وبدون أي مقابل، فمثلاً عندما غضب عليه حاكم مصر "سعيد" باشا – بدون أي سبب مقنع في الواقع– وجرده من منصب ناظر (ديوان المدارس)، ليجلس "علي مبارك" في بيته عاطلاً عن العمل، زاره "أدهم" باشا أحد قادة الجيش، وطلب منه أن يرشح له مدرسين أكفاء ليقوموا بمحو أمية الجنود، وإذا بـ"علي مبارك" يتطوع بنفسه لأداء هذه المهمة، وعندما يلمح علامات التعجب في وجه "أدهم" باشا، الذي لم يكن يخطر بباله أن يقوم وزير التعليم السابق بنفسه بتعليم الجنود القراءة والكتابة، قال له "علي مبارك": "كيف لا أرغب في انتهاز فرصة تعليم أبناء الوطن، لقد كنا مبتدئين نتعلم الهجاء ثم وصلنا إلى ما وصلنا إليه" !

وعلى الفور كوّن "علي مبارك" فرقاً من المدرسين، وكانت الدروس تلقى في الخيام، وكان يتخذ من الأرض والبلاط أماكن للكتابة، وشيئاً فشيئاً أخذ يدرّس مادة الهندسة، بل وألف كتاباً مبسطاً فيها سماه (تقريب الهندسة)، وأخذ يدرّس - بالإضافة إلى ذلك- كثيراً من الفنون العسكرية، وهكذا تحول مشروع محو أمية الجنود على يد ذلك المعلم العظيم لما يقرب من كلية حربية! وانظروا إليه وهو يتحدث عن تلاميذه وعما كان يفعله وهو ناظر لديوان المدارس:

"كنت ألتفت للتلاميذ في مأكلهم ومشربهم وملبسهم وتعليمهم، وكنت أباشر ذلك بنفسي، حتى أعلم التلميذ كيف يلبس وكيف يقرأ وكيف يكتب، وألاحظ المعلم كيف يلقي الدرس وكيف يؤدب التلامذة، ولا يمضي يوم إلا وأدخل عند كل فرقة وأتفقد أحوالها، مع التشديد على الجميع بما فيهم الخدمة والفراشين في القيام بما عليهم، ولم أكتفِ بذلك بل رتبت دروساً كنت ألقيها بنفسي على التلامذة، واكتفيت في تأديب من فرط منهم بالنصيحة واللوم، وانقطع الشتم والضرب، وبالجملة كانت أغراضي فيهم أبوية، وإلى الآن أعتقد أن ذلك واجب على كل راع في رعيته، حتى يحصل الغرض من التربية".

من الذي يهتم بالتلاميذ ويتابع تعليمهم ومستواهم الدراسي يوماً بيوم في مصر كلها؟! إنه وزير التربية والتعليم شخصياً! وربما يكون من المثير أن نعرف أن "علي باشا مبارك" كان أول من اكتشف "مصطفى كامل"، فقد رآه "علي مبارك" حين كان يزور مدرسته الثانوية، وأعجب حينها بفصاحته وشخصيته القوية، وتنبأ له بمستقبل عظيم، بل لقد دعاه "علي مبارك" إلى منزله وقدمه لكبار رجال الدولة وكبار الأدباء والمثقفين، وأخذ يناقشه أمامهم في كثير من قضايا السياسة والمجتمع! وعندما توفي "علي باشا مبارك" في 14 نوفمبر سنة 1893م أغلقت جميع المدارس ودور العلم في مصر أبوابها ليودع طلبتها وأساتذتها الصانع الأول لمؤسسة التعليم في مصر الحديث، لقد كان "علي مبارك" نموذجاً حقيقياً للمعلم الذي كاد يكون رسولاً بالفعل، فليس من المستغرب إذن أن يكون تلاميذه من عينة "مصطفى كامل"، كما أنه ليس من المستغرب أن يتخرج تلاميذ اليوم من المدارس الثانوية وهم بالكاد يستطيعون القراءة والكتابة !

"محمد علي".. الذي قاوم "حلاقي الصحة"، وأوجد معنى مصريا لـ"الحلب"!



تعلم "محمد علي" الدرس جيداً ممن سبقوه على عرش مصر، تعلم أن الجميع كانوا يعاملون مصر على أنها بقرة حلوب لا يجف ضرعها أبداً، فكانوا يتسابقون أيهم يستطيع أن يظفر منها بالمزيد دون أن يعبأ واحد منهم برعاية هذه البقرة المسكينة، فلما جاء "محمد علي" اهتم بتغذية (البقرة) فزرع لها آلاف الأفدنة لغذائها، وأحضر لها المهندسين الزراعيين والأطباء البيطريين من كل مكان في العالم ليرعوا صحتها، وكان يعاملها برفق في أغلب الأوقات، والنتيجة أنه استطاع أن يجني منها ما لم يستطعه حاكم من قبله، استطاع أن يجني لبنها ولحمها له ولذريته من بعده لنحو 150 سنة بأكملها!

على أية حال أياً كانت نية "محمد علي" باشا، فلا شك أن إنجازاته وآثاره التي تركها بعد رحيله تفوق ما تركه أي حاكم آخر من أيام الفراعنة وإلى الآن، وكان تأسيس أول مدرسة للطب في مصر والشرق الأوسط بأكمله واحدا من أهم إنجازات عصر "محمد علي" باشا.

لقد كانت مهنة الطب بأكملها عندما وصل "محمد علي" إلى حكم مصر من مسئولية (حلاقي الصحة) الذين كانوا يقومون بتشخيص الأمراض المختلفة ثم يصفون العلاج بخلطاتهم السريّة من الأعشاب، ولا مانع من إجراء العمليات الجراحية أيضاً!، وعندما بدأ "محمد علي" في إنشاء جيش مصري حديث رأى ضرورة استحداث هيئة طبية مصرية لتقديم الخدمات العلاجية للجنود المصريين، وقد كلف "محمد علي" الطبيب الفرنسي "أنطوان برسلي كلوت" (الذي اشتهر بعد ذلك بكلوت بك) بأن يتولى إنشاء تلك الهيئة الطبية، فقام "كلوت" بك بتأسيس المستشفى المركزي العام بأبو زعبل لتكون قريبة من معسكرات الجيش هناك، وكان "كلوت" بك شديد الحب والإخلاص لمصر، فأرسل إلى وكيل وزير الحربية خطاباً في 24 يوليو 1826م يطلب تأسيس (مدرسة) طبية بجوار المستشفى المركزي العام بأبو زعبل، لتعيد الأمجاد العلمية المصرية التي انهارت بسبب الجهل، وذكر في رسالته أن المدارس العلمية لا تكون طويلة العمر أو ذات ثمرة مؤكدة إلا إذا كانت وطنية مستقلة عن الأجانب، فقد تمنع مصالح الأجانب الشخصية ومطامع بلادهم المحافظة على صالح البلاد، كما أن انتداب الأطباء الأجانب أمر لا يدوم ولا بد من اختيار أطباء أو أساتذة من المصريين، وجعل "كلوت" بك الدراسة في مدرسة الطب المصرية على النظام الفرنسي، فكانت مدة الدراسة بها 6 سنوات، واختيرت الكتب

الدراسية من أهم وأشهر المراجع الطبية الفرنسية..

وفي سنة 1827م تم افتتاح مدرسة الطب بأبو زعبل، وألحق بها مدرسة لتعليم اللغة الفرنسية حتى يتمكن الطلبة من قراءة المراجع الفرنسية بلغتها الأصلية، فيجب أن نلاحظ أن دراسة الطب كانت باللغة العربية كما سنتحدث عن ذلك بالتفصيل لاحقا، واختير طلبة مدرسة الطب في الأساس من نابغي طلبة الأزهر الشريف..

ويدلنا اهتمام الحكومة المصرية بكل أجهزتها بامتحانات مدرسة الطب على مدى التقدم والرقي العلمي في تلك الفترة المبكرة من تاريخنا الحديث، فقد كان لامتحانات مدرسة الطب قدسية خاصة، وكان يحضر الامتحان علية القوم وقناصل فرنسا وإنجلترا وروسيا وهولندا بالإضافة إلى العلماء والأعيان، ورأس طبيب "محمد علي" الخاص لجنة الامتحان الأولى، كما حضر "إبراهيم" باشا – ابن "محمد علي" وولي عهده - امتحان مدرسة الطب سنة 1830م، وفي سنة 1832م قرر "كلوت" بك أن يرسل المتفوقين من خريجي المدرسة إلى باريس ليتموا دراستهم على يد أكبر أساتذة الطب في فرنسا، وكانت أول بعثة طبية تسافر إلى فرنسا مكونة من 12 طبيباً من خيرة أطباء مصر الذين شكلوا بعد عودتهم الرعيل الأول من الأساتذة المصريين في مدرسة الطب المصرية، وقد طلب "محمد علي" باشا من "كلوت" بك أن يعقد لهم امتحان دخول ليتأكد من قدرتهم على التحصيل، فكون "كلوت" بك لجنة من أكبر أطباء فرنسا وأساتذتها، وفي إحدى قاعات مدرسة الطب في باريس، - وبحضور أعضاء المجمع العلمي الفرنسي،- عقد في أواخر سنة 1832م امتحانا كان في غاية الصعوبة،

وتحققت النتيجة المتوقعة: نجح جميع طلبة البعثة المصرية نجاحاً باهراً أذهل جميع الحاضرين، حتى إن الجراح الفرنسي الشهير الدكتور "دبوبترن" قد علق على نتيجة اختبار طلبة البعثة المصرية قائلاً: "أيها الطلبة، لقد تحققنا من كفاءتكم، وأجوبتكم على أسئلتنا خير دليل على أنكم ستكونون خير خلف لأسلافكم العظام الرازي وابن سينا"..

وعندما انتهت سنة 1832م كان قد مرّ عشر سنوات على إنشاء مدرسة الطب المصرية، وكان عدد خريجيها يزيد عن 430 طبيباً، ورأت الدولة أن مدرسة الطب قد ضاق بها مقرها في أبو زعبل، وأنها أصبحت في حاجة ماسة لمكان أرحب، فنقلت المستشفى والمدرسة إلى القصر الذي بناه الأمير المملوكي "أحمد بن العيني"، وبذلك أصبحت المدرسة والمستشفى في متناول الجمهور مما يسّر لطلبة الأزهر ولكثير من الراغبين في تعلم الطب أن يستمعوا إلى محاضرات أساتذته ويجدوا في أطبائه المهرة تعويضاً ولو متأخراً عما عانوه طيلة حياتهم على يد حلاقي الصحة !

وعندما انتقلت مدرسة الطب إلى قصرالعيني كان يدرس بها نحو 300 طالب مقيمين بها، يتعلمون ويأكلون ويشربون ويلبسون مجاناً، وتدفع لهم الحكومة مرتبات شهرية أيضاً، وحين عادت البعثة الطبية من فرنسا، تمت مساواة أعضائها بزملائهم من الأجانب، وحددت لهم الحكومة راتباً شهرياً قدره 10 جنيهات كاملة، وهو مبلغ ضخم للغاية بمقاييس ذلك الزمن، وفي سنة 1848م زار مصر الدكتور "الاليماند" أحد علماء فرنسا بناء على دعوة وجهها له "إبراهيم" باشا ليبدي رأيه في مستوى ونظام الدراسة في مدرسة الطب المصرية، فقام بدراسة أحوال مدرسة الطب، ورفع تقريراً

لناظر (وزير) المعارف جاء فيه:

"لقد امتننت جداً من امتحان طلبة الطب في الأيام الثمانية التي قضيتها بينهم، وفي ظني أنه لو تقدم طلبة من الفرنسيين في مثل هذه الظروف لما كانوا أمهر من الطلبة المصريين، وبين الطلبة الذين قمت بامتحانهم من أعدهم فخراً لأي جامعة أوربية، وكثير منهم يستحقون أن ينالوا بعثات لأوربا كي يعودوا أساتذة أكفاء وأطباء ماهرين، وأقول إن المدرسة الطبية المصرية يمكنها أن تخرج الآن أطباء جديرين بالثقة التامة ومؤهلين على أعلى مستوى للعلاج وللتدريس".

ولاحظ أنه يتحدث عن مستوى (طلبة) مازالوا يدرسون الطب، بالطبع كان هذا عندما كان هناك طلبة يواظبون على حضور المحاضرات وعندما كان الطب يدرّس من المراجع وداخل أروقة الكلية، وليس كما في أيامنا السعيدة هذه التي أصبح فيها الطب يدرّس في الأساس في مراكز الدروس الخصوصية ومن الملخصات والملازم(!!)، والحقيقة أن المشكلة ترجع كما أخبرني أكثر من صديق من دارسي الطب إلى أن ما يتعلمه طالب الطب (عملياً) قليل للغاية مقارنة بآلاف الصفحات النظرية (بلا مبالغة) التي يجب عليه أن (يحفظها) أو حتى يفهمها عن ظهر قلب، على أية حال فما نحن على يقين منه الآن أن مصر كانت تضم منذ منتصف القرن التاسع خيرة أطباء الشرق كله، وكان المرضى وطلبة العلم يتوافدون إلى مدرسة قصر العيني من جميع البلاد العربية وحتى تركيا واليونان، وهو الذي يجعلنا نتساءل: ما الذي حدث للأطباء المصريين ؟!

"ابراهيم النبراوي"..
بائع البطيخ الذي عرب الطب!



لا يستطيع أي قارئ لتاريخ "محمد علي" باشا أن يخفي إعجابه ودهشته من حجم المشروع الحضاري العملاق الذي كانت تعيشه مصر تحت حكمه، وسواء أكان هذا ليوطد أركان إمبراطوريته الواسعة أو لأنه مؤمن فعلاً بأهمية التطوير، فإن آثار نهضته الحضارية التي تركها وراءه – في جميع المجالات- لا يختلف عليها اثنان، كل هذا مع أن "محمد علي" كان أمياً ولم يتعلم القراءة والكتابة إلا في سن الأربعين، ولم يعرف عنه أبداً أنه كان يتحدث باللغة العربية أصلاً، ومع ذلك نراه شديد الاهتمام بنقل

المعارف والعلوم الأوربية إلى اللغة العربية وليس التركية التي كان يتقنها "محمد علي"..

والغريب أننا نضع أيدينا ونحن نقلب معاً صفحات التاريخ على قضية ساخنة تثار باستمرار ولا ينتهي النقاش حولها أبدا، وهي قضية تعريب العلم، دعونا أولاً نكمل قصة مدرسة الطب المصرية ..

كانت أول مشكلة قابلت "كلوت" بك عند إنشائه مدرسة الطب أنه لم يكن يوجد في مصر أي تلميذ يعرف أي لغة أجنبية، لذلك تقرر أن تكون الدراسة باللغة العربية، ولم يكن ذلك هو السبب الوحيد، فلقد كانت الدراسة باللغة العربية توافق نظرية "كلوت" بك التي ترى أن: "التعلم بلغة أجنبية لا تنتج منه الفائدة المنشودة، كما لا ينتج عنه توطين العلم أو تعميم نفعه"، ولذلك فقد ألحق المترجمين بمدرسة الطب واعتبرهم طلبة فيها، كما ضم إليهم 100 من متفوقي طلبة الأزهر، وبالطبع لم تعجب فكرة أن تكون الدراسة باللغة العربية أياً من الدول الاستعمارية التي كانت تأمل في أن يظل التعليم في مصر مرتبطاً بها، حتى إن أحد المسئولين الفرنسيين في مصر كتب إلى حكومته قائلاً: "إن مدارس الطب والصيدلة وفن البيطرة والكيمياء مكونة تماماً من العرب، والمسيو كلوت يحاول أن يعطي تلاميذه روحاً وطنية عربية، ولا أعرف هل يستحق التأنيب أم التشجيع لذلك"

إذاً فهكذا أنشأ "كلوت" بك أول مدرسة حديثة للطب في الشرق وجعل الدراسة فيها باللغة العربية، ولعله من المناسب ونحن نتحدث عن نشأة مدرسة الطب المصرية واستخدام اللغة العربية كلغة أساسية للدراسة أن نتطرق لقصة حياة عجيبة لواحد من جيل الرواد الذين قامت على أكتافهم

مدرسة الطب المصرية، الدكتور "إبراهيم النبراوي"..

بدأ "إبراهيم النبراوي" حياته في قريته "نبروه" بمحافظة الغربية - تابعة لمحافظة الدقهلية حاليا- صبياً فقيراً يساعد أبويه في فلاحة قراريط صغيرة يملكونها كأغلب أطفال قريته، ثم يقوم الأب ببيع محصوله القليل في طنطا عاصمة الغربية، وفي هذه البيئة البسيطة حفظ "إبراهيم" القرآن الكريم وتعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب في كتّاب القرية، ولم يكن ليخطر على بال أحد أن مثل هذا الغلام البائس يمكن أن يكون له أي مستقبل على الإطلاق باستثناء الفلاحة وتربية المواشي طبعاً، وربما يكون ذلك صحيحاً تماماً لولا تلك الفكرة التي خطرت له وكانت السبب في تغيير حياته بأكملها!

لقد خطر لـ"إبراهيم النبراوي" أن يساعد أباه في بيع محصوله البسيط من البطيخ، فقرر أن ينقله ليبيعه في القاهرة – التي لم يزرها قبل ذلك إطلاقاً بالمناسبة- ظناً منه أن أسعار البيع في المحروسة ستكون أكثر مما في طنطا، فلابد أن أهالي القاهرة سيكونون أقدر على الدفع من غيرهم، وعلى الفور استأجر جملاً من نبروه وحمّل عليه محصول البطيخ وشدّ الرحال إلى القاهرة بعد أن وعد والديه بالكسب الوفير، ولكن الأمر لم يكن بتلك البساطة، وبالطبع لم يجد "إبراهيم النبراوي" الرخاء الذي كان يحلم به في القاهرة، فقد مرّ يومان والسعر لا يريد أن يتزحزح لأعلى، وعندما بدأ بعض البطيخ يفسد أيقن أن الوقت ليس في صالحه، واستطاع بصعوبة أن يبيع ما تبقى له من المحصول، وحين أخذ يحسب ما معه من المال، وجد أن خسارته فادحة، فأعطى لصاحب الجمل الذي استأجره من نبروه أجرته،

وأوصاه أن يبلغ والديه أنه لن يعود إلا بعد أن يعوّض الخسائر الباهظة التي خسرها في صفقة البطيخ هذه!

ويذكر المؤرخ الكبير "جمال بدوي" في كتابه الممتع "أنا المصري" أن "إبراهيم النبراوي" أخذ يطوف شوارع القاهرة وحاراتها بحثاً عن عمل بلا جدوى، إلى أن أوصلته قدماه إلى الجمالية ومنها إلى الأزهر، وبينما هو واقف بجوار الجامع الأزهر، إذا به يرى شيخاً معمماً يسير بمهابة ووقار، ويتبعه شباب معممون بأدب واحترام شديدين، ولما سأل "النبراوي" عرف أن ذلك المسجد الكبير هو الأزهر الشريف، وأن الشيخ هو أحد علمائه وهؤلاء الشباب هم من صغار الطلبة الذين يدرسون به..

برقت الفكرة على الفور في رأس "إبراهيم النبراوي"، لم لا يلتحق بالدراسة بالأزهر الشريف ويصبح طالب علم كهؤلاء الشباب المعممين، وأخذ يتخيل نفسه وقد عاد إلى القرية وأصبح شيخاً للكتاب أو إماماً للمسجد والناس يعاملونه باحترام ويقبّلون يديه! ، وهو في النهاية لن يتكلف شيئاً وسيحصل على الجراية وهي أرغفة بائسة من الخبز كانت توزع مجاناً على طلبة الأزهر، وسيعوض بذلك خسارته من تحت رأس تجارة البطيخ !

وبالفعل يلتحق "إبراهيم النبراوي" بإحدى حلقات الأزهر الشريف، ثم ينتقل منها إلى حلقة أخرى وثالثة، وتمضي الشهور ويظهر نبوغ "إبراهيم" واستعداده للتعلم حتى يلفت نظر شيوخه وأساتذته من علماء الأزهر، وتمضي الأيام حتى يستدعيه شيخه ذات يوم، فيسرع "النبراوي" إليه ويجد عنده عدداً من الأشخاص، بعضهم معممون والبعض الآخر يرتدون زي ضباط الجيش، ويقدمه الشيخ إليهم وهو يثني عليه ويمتدح

ذكاءه ونبوغه، ويفهم "إبراهيم النبراوي" من حديث شيخه أن هؤلاء الأشخاص هم أعضاء لجنة جاءت إلى الأزهر لاختيار النابغين من الطلبة ليكونوا نواة مدرسة الطب التي شرع "كلوت" بك في إنشائها بتكليف من "محمد علي" باشا..

وهكذا انتقل "إبراهيم النبراوي" من طالب بالأزهر أقصى ما يطمح إليه أن يصبح شيخاً لكتّاب أو إماماً لمسجد القرية، إلى طالب بمدرسة الطب، وكما نبغ "النبراوي" في الأزهر نبغ أيضاً في دراسة الطب، حتى سافر في بعثة علمية إلى فرنسا بترشيح من أستاذه "كلوت" بك شخصياً، وقد تزوج الدكتور "إبراهيم النبراوي" هناك من فتاة فرنسية ، عاد بها إلى مصر بعد أن أتم دراسته سنة 1836م، وعيّن بعدها مدرساً بمدرسة الطب المصرية، فكان من أوائل المصريين الذين قاموا بالتدريس في مدرسة الطب وتدرج في المناصب حتى أصبح وكيلاً لمدرسة الطب، وذاعت شهرته وكفاءته الطبية النادرة فكان الناس يقصدون إليه من جميع أنحاء مصر، حتى بلغ صيته أسماع "محمد علي" باشا فقربه إليه وجعله طبيبه الخاص، كما أصبح الطبيب الخاص أيضاً لوالي مصر "عباس" باشا ابن "محمد علي"..

والغريب أنه رغم كل تلك المكانة العلمية والاجتماعية الكبيرة التي حظي بها الدكتور "إبراهيم النبراوي"، إلا أنه لم يفكر أبداً في أن يجعل التدريس في مدرسة الطب باللغة الفرنسية مثلاً رغم دراسته الفرنسية، ولم يحتقر اللغة العربية أو يقلل من شأنها ويقرر أنها لا تصلح لتدريس العلوم الطبية، أو أن دراسة الطب باللغة العربية ستكون باستخدام مصطلحات معقدة

أصعب بكثير من مثيلاتها اللاتينية، ولم يدّع مثلاً أن دراسة العلوم باللغة العربية تقتضي أولاً أن نكون متقدمين علمياً كما كنا في صدر الحضارة الإسلامية وليس قبل ذلك، إلى آخر هذه الادعاءات التي نسمعها كلما فتح باب النقاش حول موضوع تعريب العلوم ودراسة المواد العلمية باللغة العربية، ولم تكن الدراسة باللغة العربية مقتصرة على الطب فحسب، ولكن جميع المدارس العليا التي أنشئت في هذه الفترة كانت دراستها باللغة العربية، وحتى مدرسة الألسن التي أنشأها "رفاعة الطهطاوي" كانت مهمتها في الأساس هي تخريج مترجمين أكفاء لينقلوا عيون الكتب العلمية والأدبية من لغاتها الأوربية إلى اللغة العربية، ويكفي أن نعرف أن أول وظيفة شغلها "رفاعة الطهطاوي" بعد عودته من رحلته التعليمية الشهيرة في فرنسا هي وظيفة (مترجم) بمدرسة الطب، أي أنه كان يقوم بترجمة المحاضرات التي كان يلقيها الأساتذة الفرنسيون في العلوم الطبية المختلفة على طلبة مدرسة الطب الذين لم يعرفوا لغة غير العربية طوال حياتهم!

وبعد ذلك فلن ندهش كثيراً عندما نعرف أن الدكتور "إبراهيم النبراوي" قد ترجم عدداً من الكتب عن الفرنسية ككتاب "الأربطة الجراحية"، وكتاب "نبذة في التشريح العام"، كما تمت في هذه الأثناء حركة نشطة لترجمة العديد من الأبحاث والمراجع الطبية التي كتبها "كلوت" بك، مثل "رسالة في الطاعون" و"نبذة في تطعيم الجدري" و"القول الصريح في علم التشريح" كما قام الدكتور "محمد علي البقلي" – أحد خريجي المدرسة الطبية المصرية من الرعيل الأول وكبير جراحي القصر العيني- بتأليف عدد من الكتب الطبية باللغة العربية مثل "غاية الفلاح في فن الجراح"

و"غرر النجاح في أعمال الجراح"، كما أصدر مجلة طبية شهرية باللغة العربية هي مجلة "يعسوب الطب"، وهي أول مجلة علمية عربية على الإطلاق، وبصفة عامة بلغ عدد الكتب الطبية التي تم تعريبها عن الفرنسية في عهد "كلوت" بك حوالي 86 مرجعاً فرنسياً، وتعد هذه المكتبة الطبية العربية أكبر مكتبة طبية في العالم ترجمت من لغة إلى لغة في وقت واحد، ومع اعترافنا بطرافة أسماء بعض الكتب الطبية التي تمت ترجمتها أو تأليفها في هذه الفترة، والتي راعى مترجموها أن تكون عناوينها موسيقية مسجوعة كما كانت العادة في تلك الأيام، إلا أنها بلا جدال كانت دليل مشروع نهضة حضارية عربية حقيقية مبنية على اللغة العربية، تماماً كما بدأت النهضة الأوربية الحديثة بحركة ترجمة واسعة للكتب العربية في جميع العلوم والفنون، ولا ننسَ أيضاً أن نلاحظ ثقة والي مصر "محمد علي" باشا في الأطباء المصريين الذين تعلموا باللغة العربية، فقد رأينا كيف اتخذ من أحدهم طبيباً خاصاً، بعد أن كان يتخذ طبيبه الخاص من الأوروبيين فقط، حتى أن الباشا قد اصطحب طبيبه الخاص الدكتور "النبراوي" معه في رحلته إلى أوربا رغم أنها تمتلئ بعمالقة المستشفيات والأطباء، فلم يفعل مثل من جاء بعده من الحكام والوزراء الذين يطيرون للعلاج في الخارج مع أقل نزلة برد تصيبهم !

مصر تحكم سوريا وبيروت والحجاز وكريت.. وتهزم الجيش العثماني!



في سنة 1821م ثار أهالي قبرص وجزيرة كريت وبلاد المورة (اليونان) على الدولة العثمانية، وكانت كل هذه البلاد خاضعة للحكم العثماني، ولما عجزت الدولة العثمانية عن التصدي لهذه الثورات، عهد الخليفة العثماني السلطان "محمود" لـ"محمد علي" بارسال جيش لإخماد الثورة في بلاد اليونان، فاستجاب "محمد علي" لطلب السلطان "محمود"، وأرسل أسطولاً بحرياً عملاقاً، وصفه المورخون الأوربيون بأنه "حملة لم

يرَ الشرق مثلها في ضخامتها منذ حملة نابليون بونابرت، فكأن الشرق أراد أن يغزو الغرب جواباً على حملة أوربا عليه".

وانتهت الحروب اليونانية بعد ذلك بعدة سنوات بتدمير أغلب الأسطول المصري في موقعة نافارين البحرية بعد أن تحالفت عليه إنجلترا وفرنسا وروسيا، فلم تستفد مصر شيئاً من وراء هذه الحرب من الناحية المادية، وإن أكسبتها حروب اليونان منزلة معنوية كبيرة بعد أن برهن الجيش المصري على كفاءته وأثبت أنه يضارع أرقى الجيوش الأوربية في ميادين القتال..

وقد أرادت تركيا أن تعوض "محمد علي" بعض خسائره في حروب اليونان، فولته حكم جزيرة كريت، ولم تكن ولاية جزيرة كريت ذات قيمة تذكر لـ"محمد علي"، حيث إنه لم يكن من السهل أن تحكم مصر تلك الجزيرة أو تستفيد منها لبعدها عن مصر، ولميل أهلها للفتن والثورات..

فطلب "محمد علي" من السلطان العثماني أن يضم ولاية سوريا إلى مصر تعويضاً عما تكبده الجيش المصري من خسائر في اليونان، ولكن السلطان العثماني لم يقبل بذلك، فاعتزم "محمد علي" أن يفتح سوريا بحد السيف، وتذرع بأن عدداً كبيراً من الفلاحين المصريين (حوالي 6 آلاف) قد فرّوا إلى سوريا بعد أن أثقلتهم الضرائب في مصر، وأن ذلك يضر بمصالح مصر الاقتصادية(!!)، وأنه ذاهب إلى سوريا لاستعادتهم من هناك، وخاصة أن والي صيدا "عبد الله باشا" قد رفض أن يعيدهم إلى مصر، فكتب "محمد علي" إليه قائلاً إنه ذاهب ليعيد الفلاحين المصريين جميعاً يزيدون واحداً هو "عبد الله باشا" ذاته !

وبدأ "محمد علي" يعد حملة عسكرية كبيرة يزيد عددها عن 30 ألف مقاتل بقيادة ابنه "إبراهيم باشا"، كما شارك الأسطول المصري أيضاً في هذه الحملة، وفي أكتوبر سنة 1831م بدأ تحرك الجيش المصري متجهاً إلى الحدود السورية، ففتح خان يونس وغزة ثم يافا (تل أبيب حالياً)، وبعدها حاصر "إبراهيم باشا" القائد العام للجيش المصري مدينة عكا، وظل الحصار قائماً لثلاثة أشهر بدون أن يستطيع أن يدخلها، وخلال هذه المدة استطاع الجيش المصري أن يحتل عدداً من المدن الشامية المهمة، ففتح صور وصيدا وبيروت وطرابلس والقدس(!!) وانتهى حصار عكا بفتحها (وهي التي لم يستطع "نابليون" أن يفتحها سنة 1799م)، وأخيراً فتح الجيش المصري دمشق في 16 يونية سنة 1832م ..

جزعت تركيا لسقوط عكا فأعدت جيشاً كبيراً حارب الجيش المصري في موقعة حمص التي انتهت بهزيمة الدولة العثمانية، وبلغت خسائرها 2000 من القتلى و2500 أسير، واستولى الجيش المصري على عشرين من مدافع الجيش العثماني إضافة إلى الأمتعة والذخائر، أما خسائر المصريين فلم تزد عن 102 من القتلى فحسب..

وتعد واقعة حمص من أهم المعارك التي خاضها الجيش المصري، فقد كانت أول معركة كبيرة تقاتل فيها الجيشان المصري والتركي وجهاً لوجه، وكانت قوات الجيشين متعادلة فكلاهما مكون من حوالي 30 ألف مقاتل، ولكن الجيش المصري امتاز ببراعة القيادة وحسن التنظيم فلم يكن من المستغرب أن ينتصر في المعركة، وقد دلت موقعة حمص على تفوق الجيش المصري على الجيش التركي في ميادين القتال، فكان لهذا النصر

تأثير كبير في الأذهان لأن أحداً لم يكن يتصور أن جيش السلطان من الممكن أن يهزم أمام الجيش المصري الذي كان معدوداً في ذلك الحين جزءا من الجيش العثماني..

اجتاز المصريون بعد ذلك حدود سوريا الشمالية ودخلوا ولاية أدنة، وهي إحدى الولايات التركية الاستراتيجية، ومع ذلك لم ييأس السلطان "محمود" سلطان تركيا أمام كل هذه الهزائم، فأعد جيشاً جديداً بقيادة الصدر الأعظم (رئيس وزراء الدولة العثمانية) "محمد رشيد باشا"، وكان هذا الجيش مؤلفاً من 53 ألف مقاتل هم خليط من أجناس السلطنة العثمانية لا تربطهم رابطة ولا يجمعهم هدف، فمن الطبيعي إذن أن يفقد الجيش أهم عامل لقوته المعنوية وخاصة إذا كان الجيش الذي يقاتله قوياً متماسكاً كالجيش المصري، والتقى الجيشان في موقعة قونية التي انتهت بهزيمة الجيش التركي هزيمة ساحقة، وبعد هذه الموقعة كان الطريق مفتوحاً أمام الجيش المصري إلى الأستانة عاصمة الدولة العثمانية، وانتهت حروب مصر في سوريا والأناضول بإجبار الدولة العثمانية على توقيع اتفاقية كوتاهية بعد تدخل الدول الأوربية لمنع "محمد علي" من التقدم أكثر من ذلك، واعترفت تركيا لـ"محمد علي" في هذه الاتفاقية بحكم مصر والسودان وجزيرة كريت والحجاز، هذا بالطبع إضافة إلى سوريا وأدنة !

"أحمد باشا فوزي".. أتحدى مصر أسطولاً بحريا.. فشرب قهوة بالسم !



بالطبع وقعت الدولة العثمانية على صلح "كوتاهية" مع "محمد علي" وهي مغلوبة على أمرها، لقد أصبح "محمد علي" شوكة في ظهر الدولة العليّة، وكانت دولة الخلافة تنتظر الفرصة التي ستثأر فيها من تجرّؤ أحد ولاتها عليها، لدرجة أنها وقعت معاهدة دفاع مشترك مع عدوتها اللدودة روسيا (تعرف تاريخياً باسم معاهدة هنكار أسكلة سي) وتبيح فيها الدولة العثمانية لجيوش قيصر روسيا أن يدافع عن تركيا ضد أي خطر يتهددها، وكان الخطر الوحيد الذي يتربص بالدولة العثمانية حينها هو

جيوش "محمد علي"، وعندما ظنّت الدولة العثمانية أنها قد استكملت بناء قواتها وتنظيم صفوفها من جديد بعد الدمار الذي أصابها في موقعة "قونية"، إذا بها تنقض صلح "كوتاهية"، وتهاجم الجيوش المصرية عند بلدة تدعى "نصيبين" قريبة من الحدود التركية السورية، ويشاء الله أن تكون موقعة "نصيبين" هذه واحدة من أكبر الخسائر التي يتعرض لها العثمانيون طوال تاريخهم الحربي الطويل، فقد قضت هذه الموقعة على قوة تركيا الحربية تماماً، وكادت تنهي وجود الدولة العثمانية بأكملها لولا تدخل الدول الأوربية من جديد، ولكن ما يعنينا هنا هو قصة ضربة قاضية أخرى تعرضت لها الدولة العثمانية في نفس ذلك التوقيت، فقد توفي سلطان الدولة العثمانية السلطان "محمود" في أول يوليو سنة 1839م قبل أن يبلغه نبأ الهزيمة الساحقة التي مني بها جيشه في "نصيبين"، وتولى من بعده السلطان "عبد المجيد" الذي لم يتجاوز الـ17 من عمره!! وبالطبع فلم يكن السلطان الجديد يعرف كيف يتصرف وما الذي يجب عليه أن يفعله في تلك العواصف التي تهدد عرش آبائه وأجداده، فقام بتعيين أحد الساسة المخضرمين في الدولة العثمانية – وهو "محمد خسرو" باشا وال مصر الأسبق قبل "محمد علي" - في منصب الصدر الأعظم (رئيس الوزراء)، وقام السلطان "عبد المجيد" بإرسال رسول إلى مصر ليعرض على "محمد علي" عقد هدنة يمكن خلالها إجراء مفاوضات للاتفاق على حل يرضي الطرفين، كما عهد إليه أن يأمر "أحمد باشا فوزي" قبطان الأسطول العثماني بالعودة إلى تركيا بعد أن كان على أهبة الاستعداد للإبحار لقتال الأسطول المصري، ولكن "فوزي باشا" كان قلقاً على مركزه بعد موت السلطان "محمود"، ذلك لما كان بينه وبين "خسرو باشا" من عداوة

قديمة، فاعتقد "فوزي" أن استدعاءه للأستانة (إسطنبول) لا لشيء إلا لقتله أو لعزله على أفضل تقدير، وظل "فوزي باشا" على حيرته إلى أن أشار عليه وكيله "عثمان باشا" بفكرة دنيئة..

كان الاقتراح بأن يلجأ إلى "محمد علي" في مصر ويسلمه الأسطول التركي بأكمله كهدية أو عربون محبة بسيط !

وافق "أحمد باشا فوزي" على هذه الخيانة، فأقلع بالأسطول العثماني الضخم متجهاً إلى الإسكندرية، وكان ذلك الأسطول بالمناسبة مكوناً من 9 بوارج كبيرة، و11 سفينة من نوع الفرقاطة، إضافة إلى 5 سفن كبيرة أخرى، وكان عدد الجند والبحارة الذين يقلهم الأسطول يزيد عن 21 ألف فرد! ولما وصل "فوزي باشا" على رأس هذا الأسطول إلى جزيرة رودس أرسل وكيله إلى "محمد علي" باشا وأخبره بعزمه، فابتهج "محمد علي" بهذه الفرصة ابتهاجاً عظيماً، وأرسل على الفور رسولاً إلى "فوزي باشا" ليبلغه سروره وترحيبه بالأسطول العثماني، ولما بلغ الأسطول الإسكندرية، كان الأسطول المصري خارج الميناء لإجراء بعض التدريبات، فدخل الأسطولان المصري والعثماني الميناء معاً، وعدد سفنهما نحو 50 سفينة حربية تقل نحو 30 ألف مقاتل بخلاف البحارة، فصارت مصر بتلك القوة البحرية المزدوجة أقوى دولة بحرية في البحر المتوسط بلا منازع، ولقي "فوزي باشا" قبطان الأسطول العثماني عند "محمد علي" المكانة والأمان الذي كان يتوقعه..

وكان من الممكن أن تمضي مصر في طريقها لأن تصبح دولة عظمى ـ بلا مبالغة ـ لولا أن تدخلت الدول الأوربية ولعبت لعبتها، وفرضت على

''محمد علي'' أن يقبل بمعاهدة ظالمة أجهضت نهضة مصر، وبعدها أصدر السلطان العثماني فرماناً يحدد شكل العلاقة بين مصر والدولة العثمانية، وكان من بنوده إعادة الأسطول العثماني والعفو على جميع رجاله باستثناء القبطان ''أحمد باشا فوزي'' فكان لابد من تسليمه حتى يلقى جزاء خيانته، ولم يعرف ''محمد علي'' كيف يتصرف ، فلا هو يستطيع أن يرفض أمر السلطان ومن خلفه الدول الأوربية مجتمعة، ولا هو يستطيع تسليم الرجل الذي أعطاه الأمان فتضيع هيبته بين أتباعه، وشعر السلطان بحرج موقف ''محمد علي''، وأراد أن يسهل المهمة عليه، فأرسل إليه أنه ليس من الضروري تسليم القبطان الخائن حياً، فالمهم أن يدفع ثمن خيانته سواءً في مصر أو تركيا، فكلها بلاد السلطان على أية حال، ففهم ''محمد علي'' مغزى إشارة السلطان كما يذكر ''جمال بدوي'' في كتابه ''مصر من نافذة التاريخ''، وأحضر زجاجة صغيرة تحوي سماً زعافاً، ثم استدعى أحد أتباعه، وأعطاه الزجاجة، وكلفه بمهمة (التفاهم) مع ''فوزي باشا'' لإخراج والي مصر من ورطته، وبالفعل ذهب الرسول إلى قصر ''فوزي باشا''، وأخذ يحدثه عن متاعب وآلام الحياة الدنيا، وكيف أنه متاع زائل وأن النعيم الحقيقي في الدار الآخرة، وأنه من الأفضل أن يكون المرء مستعداً للموت في أي وقت وأي مكان، وما أسهل الموت إذا جاء للإنسان في جرعة ماء أو فنجان قهوة!، ففهم القبطان معنى الكلام، فقام وتوضأ وصلى العصر، وختم الصلاة بالدعاء والاستغفار، ثم تناول فنجان القهوة المسمومة فتجرعها بصبر واستسلام !

معاهدة لندن ..

المشهد الأخير الحزين لحلم "مصر العظمى"!



"التاريخ يعيد نفسه، ففي سنة 1840م قامت مصر وأثبتت وجودها في العالم كقوة عسكرية ولم تتركها الدول الاستعمارية بل تكاتفت عليها من أجل هدم هذه القوة الناشئة"

من كلمة للرئيس "جمال عبد الناصر"

كانت النتيجة المنطقية لمعركة "نصيبين" يجب أن تكون إقرار مصر على حدودها التي نالتها بموجب صلح "كوتاهيه"، أي أن تشمل سوريا وجزيرة العرب وإقليم أدنه وجزيرة كريت، ذلك هو التصرف المنطقي الوحيد الذي كان يجب أن يتم خاصة أن الدولة العثمانية هي التي تحرشت بالجيش المصري، ونقضت صلح "كوتاهيه" ولكن منذ متى كانت الدول الأوربية تهتم بالعدل أو المنطق؟!

الحقيقة أن "محمد علي" قد أخطأ خطأ عمره عندما أمر ابنه "إبراهيم" القائد العام للجيش المصري بألا يتقدم أكثر من ذلك بعد انتصاره في "نصيبين"، فقد كان "إبراهيم" يريد أن يتقدم بقواته حتى يصل إلى إسطنبول وينهي أمر الدولة العثمانية إلى الأبد، وكان الطريق مفتوحاً أمامه بالفعل وبلا أي عقبات، خاصة أن السلطان "محمود" - السلطان العثماني- توفي منذ ساعات دون حتى أن يصله نبأ الهزيمة الشنيعة التي منيت بها قواته في "نصيبين"، وتولى عرش الدولة العثمانية ابنه "عبد المجيد" الذي لم يزد عمره حينها عن 17 سنة..

ولكن "محمد علي" تردد ، ربما تردد لأنه ظن أن دخول إسطنبول سيهيّج عليه الدول الأوربية بأكملها، والتي كانت مصالحها في أن تظل دولة العثمانية – أو دولة الرجل المريض كما أطلقت عليها - مريضة كما هي، لا أن تموت فترثها إمبراطورية شابة كدولة "محمد علي"، ولكنه لم يدرك أن نصره الحاسم في "نصيبين" على جيوش الدولة العثمانية قد أدخله إلى عش الدبابير بالفعل، وأن الدول الأوربية لن تسمح بأي حضور فعّال لـ"محمد علي" في أوربا أو حتى البحر المتوسط، وربما يرجع سبب تردده

أيضاً إلى تلك العقدة التي لازمته طوال حياته، فهو في قرارة نفسه - ومهما حارب جيوش العثمانيين- يؤمن أنه مواطن عثماني قبل كل شيء، عثماني الثقافة والأدب والسلوك والأحلام، عثماني حتى النخاع، وهو لم يفكر أبداً في أن يهدم الخلافة العثمانية أو يستولي على عرشها ليحكمها هو وذريته من بعده، لم يحلم "محمد علي" بذلك قط، كانت أقصى أمانيه أن يؤسس لنفسه دولة (مستقلة) في مصر، وكان يأمل أن تدعه الدولة العثمانية يقوم بذلك دون أن يضطر لحربها، ربما كان يطمح في بناء دولة عثمانية حديثة، دولة متقدمة في جميع المجالات كأوربا وتحكمها الثقافة والتقاليد العثمانية العريقة، وكان "إبراهيم" ابن "محمد علي" يخالفه الرأي تماماً، فـ"إبراهيم" -وعلى العكس من أبيه- لم يكن يعد نفسه عثمانياً، وكان يحتقر الأتراك، ويرى أنه مصري أولاً وأخيراً، ولو طال به العمر أكثر من ذلك لأسس إمبراطورية عربية حقيقية..

ولو كانت إنجلترا والدول الأوربية قد عاملت مصر بنفس العطف الذي عاملت به اليونان -حين ثارت على الحكم العثماني وطالبت باستقلالها كما ذكرنا من قبل - لما كان هناك شك في أن تزيد رقعة الإمبراطورية المصرية أو على أقل تقدير أن تظل حدودها كما هي، خاصة أن مصر قد انتصرت على جيوش الدولة العثمانية بقوة جيشها وحده، بعكس اليونان التي انهزمت أمام تركيا، ولم ينجها من آثار الهزيمة سوى مساعدة الدول الأوربية لها، ومع ذلك فإن السياسة الأوربية حكمت لليونان بأن تنفصل عن الدولة العثمانية وتنال استقلالها، بينما حكمت على مصر بأن تجرد من كل ممتلكاتها، وتعود من جديد إحدى الولايات الوديعة للدولة العثمانية!! فالكيل

بمكيالين هو السياسة الدائمة التي تطبقها الدول الاستعمارية معنا منذ الأزل، ومع ذلك فمازلنا نستعجب من قسوة الأحكام الأمريكية علينا وتحيزها الدائم لإسرائيل!

ولم يحاول الساسة الإنجليز إخفاء تحيزهم، بل على العكس تماماً، كان اللعب يتم على المكشوف، فقد كانت وجهة النظر البريطانية قبل بداية الحرب واضحة للغاية ولا تقبل النقاش، فبصراحة يحسد عليها يذكر لنا التاريخ أن "بالمرستون" وزير الخارجية الإنجليزي الثعلب، وعدو "محمد علي" الأول، قال بالحرف الواحد: "إن قهر إنجلترا لمحمد علي إذا ما نشبت الحرب قد يبدو متحيزاً وغير عادل، لكننا متحيزون(!!) وتحتم المصالح الأوربية الكبرى علينا أن نكون كذلك، يجب أن تكون المحافظة على الإمبراطورية التركية أساس سياستنا، إذ أن المحافظة عليها أمر جوهري لحفظ السلام، ولمساندة استقلال أوربا الشرقية، ولذلك فلا يجب أبداً أن توقفنا أي أفكار عن العدالة تجاه (ميهمت) - يقصد محمد علي طبعاً- "، وفي إحدى رسائله كتب قائلاً: "ليس هناك محل لإثارة التساؤل حول العدالة تجاه ميهمت علي، فاللص معرّض دائماً لأن يُكرَه على التقيؤ"!!، والعجيب أن نفس هذا التعبير، التقيؤ، استخدمه "أنتوني أيدن" رئيس الوزراء الإنجليزي للتعبير عما يريد أن يفعله بـ"جمال عبد الناصر" لاسترداد قناة السويس من مصر بعد قرار تأميمها..

كان "بالمرستون" يرى أن "محمد علي" قد أصاب المصالح البريطانية بهزات عديدة، فقد كان يمثل تهديداً لإنجلترا بمشروعاته الخاصة بتطوير زراعة القطن ومصانع النسيج، وبالتوسع في أسطوله البحري،

الذي كانت إنجلترا تخشى أن يتحالف مع الأسطول الفرنسي وما يتبع ذلك من السيطرة على البحر المتوسط بأكمله وإقصاء إنجلترا عنه، كما مثلت التعريفات الجمركية والقيود التي كان يضعها "محمد علي" لحماية الصناعات المصرية الوليدة من سطوة المنتجات المستوردة من الخارج العديد من المخاوف، فقد كانت إنجلترا تخشى أن يغلق "محمد علي" أسواقه في وجهها، رغم أن ذلك لم يحدث إطلاقاً، إلا أن مجرد بقاء هذا الفرض معلقاً كان يثير فزع الإنجليز الذين كانوا حينها في أمس الحاجة إلى أسواق جديدة، هذا بالطبع بالإضافة إلى أن "محمد علي" كان يسيطر على الطريق إلى الهند، أهم مستعمرات إنجلترا..

وعلى ذلك فقد تم توقيع معاهدة "لندن" أو "الندرة" كما كانوا يطلقون عليها قديماً في 15 يوليو 1840م بين إنجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا والدولة العثمانية وفيها تعهدت تلك الدول بمساعدة السلطان العثماني على إخراج "محمد علي" من الشام، على أن يحصل "محمد علي" بموجبها على حكم مصر وراثياً ولمن يأتي بعده من أسرته من الذكور، ويظل يحكم ولاية عكا طوال فترة حياته فقط، مع إخلاء جزيرة كريت والحجاز وأدنة وإعادة الأسطول العثماني، وإذا لم يقبل "محمد علي" هذا القرار في مدة 10 أيام يحرم من ولاية عكا، فإذا استمر في رفضه 10 أيام أخرى يصبح للسلطان الحق في حرمانه من ولاية مصر، كما يلتزم "محمد علي" بدفع جزية سنوية للسلطان، ويلتزم أيضاً بتطبيق كافة المعاهدات والاتفاقات التي أبرمتها الدولة العثمانية مع الدول الأوربية، ويقوم بخفض عدد الجيش المصري إلى نحو 18 ألف جندي فقط بعد أن كان تعداد الجيش المصري

يزيد على ربع مليون جندي!! ويصبح هذا الجيش الهزيل جزءاً من قوات الدولة العثمانية، أي أن تكون في خدمة السلطان، وفي حالة رفض "محمد علي" هذه الشروط يلجأ الحلفاء الموقعون على المعاهدة إلى استخدام القوة ضده مع التزامهم بحماية عرش السلطان العثماني!

ولقد وقعت الدول الأوربية العظمى هذه المعاهدة فيما عدا فرنسا، حيث تم الاتفاق من وراء ظهرها نظراً للتنافس التقليدي بينها وبين إنجلترا، وبدأت فرنسا في تحريض "محمد علي" كي يرفض المعاهدة، ولكنها سرعان ما تركته وحده في الميدان، والغريب أن "محمد علي" قد بعث حينها برسالة إلى الصدر الأعظم العثماني (رئيس الوزراء) "خسرو" يدعوه فيها لعدم الخضوع لسياسات الدول الكبرى التي ترغب في جعل الدولة العثمانية في حالة ضعف دائم سيفضي في النهاية إلى تحطيم الدولة العثمانية إلى الأبد، فما كان من "محمد خسرو" باشا -حاكم مصر السابق بالمناسبة- إلا أن أطلع الدول الأوربية على هذه الرسالة السرية لإثبات حسن نيته!

أما "محمد علي" فقد رفض المعاهدة في البداية وتأهب للحرب واستعدت الدول الأوربية المتحالفة لحصاره، وفي الوقت نفسه قام أهالي سوريا ولبنان بثورة ضده، لدرجة أن بطريرك المسيحيين المارون - والمارون تابعون بطريقة أو بأخرى للكنيسة الكاثوليكية في لبنان- قد أعلن حرمان كل من لا يشارك في الثورة ضد المصريين، والحرمان الكنسي لمن لا يعلم بمثابة الإعدام عند أي مسيحي، ولشدة الثورات وتعددها، ولإيمان "محمد علي" بأنه لن يهنأ بالاستقرار في الشام أبداً مادامت الدول الأوربية

تعارض وجوده هناك وتثير عليه الأقليات، أمر ابنه "إبراهيم" بأن يقوم بإخلاء الشام، خاصة وقد قام الأسطول الإنجليزي بقصف بيروت، وتم إنزال قوات إنجليزية تركية إلى الشام، فاضطر "محمد علي" في النهاية إلى الموافقة على هذه المعاهدة الظالمة..

وبتلك (المؤامرة) الدولية انتهت فعلياً كل النهضة التي أفنى "محمد علي" حياته كلها في إنشائها في مصر، فقد كان إنتاج كل المصانع تقريباً موجهاً للجيش وما يحتاج إليه جنوده من ملابس وجلود وأسلحة وذخائر وأطعمة وأدوات مختلفة، حتى الطفرة الطبية التي كانت في عصر "محمد علي" كانت في الأساس لرعاية جنود الجيش، وهكذا بدأ التصنيع المصري في الانكماش بعد أن اختفت السوق الوحيدة أمامه، وهي الجيش، كما أن المعاهدات التجارية التي ضغطت إنجلترا على الدولة العثمانية لإقرارها حدّت من قدرة "محمد علي" على فرض قيود جمركية في وجه المنتجات الإنجليزية المستوردة، وبالتالي فقد تراجع الإقبال على المنتجات المصرية التي لم تكن جودتها قد وصلت بعد إلى جودة المنتجات المستوردة، وفي النهاية لم يكن أمام والي مصر العجوز "محمد علي" إلا أن يخضع للأمر الواقع، ويكتفي بتصدير المواد الخام إلى أوربا بدلاً من تصنيعها ثم تصديرها كما حلم دائماً، وكان هذا أول مشاهد النهاية.

الباشا "محمد علي"..

قضت عليه "نترات الفضة"

فبكاه المصريون ولم يخرجوا في جنازته!



"وقد سمعت كثيراً من المصريين يقولون: إذا سمح الله لي فإنني ساكون سعيداً بأن أعطي عشر سنوات من عمري لإضافتها إلى عمر والينا محمد علي باشا"

المستر "مري"

القنصل البريطاني في مصر

عندما رجع "شامبليون" إلى فرنسا بعد فترة طويلة قضاها في مصر، كتب إلى صديقه "داسييه" خطاباً جاء فيه: "محمد علي هذا رجل ممتاز، لا هم له إلا جمع أكبر قدر ممكن من الأموال من مصر المسكينة، وهو يعرف أن القدماء كانوا يمثلون هذا القطر بالبقرة الحلوب، فهو يحلبها حتى الموت ولن يتأخر ذلك"!

بالطبع لا نستطيع أن نلوم "شامبليون" على انطباعه السلبي الذي أخذه عن "محمد علي"، تماماً كما أننا لا نستطيع أن نقرّه عليه بالكليّة، ولا أظن أن ينتهي الجدل أبداً حول شخصية فذة واستثنائية كـ"محمد علي" باشا..

وربما ينقصنا ونحن نحاول تكوين صورة شبه حقيقية لـ"محمد علي" أن نتعرف على جانب آخر من شخصيته، "محمد علي" داخل قصره، وكيف يتعامل مع أفراد أسرته، ومع موظفيه ومرءوسيه، وتكشف لنا مراسلات "محمد علي" على هذا الجانب من شخصيته، تماماً كما تكشف لنا عن سخريته اللاذعة والصريحة للغاية، وكانت أغلب هذه المراسلات موجهة عادة إلى أفراد أسرته وكبار موظفي الدولة الذين ارتكبوا خطأ ما، واستحق معظم رجال الحكومة في وقت أو آخر لقب "إشيك" -أي حمار- وهو التعبير المفضل لديه، بالإضافة طبعاً إلى تعبيره المفضل الثاني: "خنزير ابن خنزير" إذا كان الباشا يوجه حديثه لأحد المصريين !

وكثيراً ما تلقى موظفو "محمد علي" تهديدات بالإلقاء في البحر أو النهر أو الدفن أحياء أو الضرب بالسياط أو الوضع فوق الخازوق أو نتف اللحى شعرة شعرة، ولم ينفذ أي من هذه التهديدات إلا في حالات نادرة، لكنها جعلت رجاله متيقظين دائماً لأنهم لا يعرفون إذا ما كانت الفأس ستسقط بالفعل هذه المرّة أم لا -كما تقول "عفاف لطفي السيد" في كتابها "مصر في عهد محمد علي"- وخاصة أن الباشا كان يبلغه بدقة كل ما يدور في البلاد صغر أم كبر،

ومن الثابت أيضا أنه كان يبلغ أيضاً بما يحدث في مكاتب الباب العالي ومقار أعضاء السلك الدبلوماسي، وكان كل من "محمد علي" وابنه "إبراهيم" يتم إحاطتهما بآخر التطورات السياسية والاقتصادية في أوربا، وكانت خطب الوزراء في برلماني فرنسا وإنجلترا يترجمها "نوبار" باشا (يومياً) لتعرض على "محمد علي"، ومع معرفتنا بكل هذا فإننا لا نستطيع تمالك أنفسنا من الدهشة عندما نقرأ بعضاً من مراسلاته مع أبنائه أو مرءوسيه، ونجد أنه يهتم بأدق التفاصيل وأصغرها، ومن غير المعروف تماماً بالمناسبة ماهية الوسائل التي كانت تصل به كل هذه المعلومات إليه، ويروي المؤرخون أن الباشا كثيراً ما أفزع خدم القصر بظهوره فجأة وحين لا يكون متوقعاً بالمرّة، الأمر الذي زاد من سمعته بأنه عليم بكل شيء..

فعندما شعر مثلاً "محمد علي" بأن أحوال الأقاليم المصرية ليست منضبطة تماماً كما يريد لها، بعث برسالة إلى حكام الأقاليم جاء فيها: "عندما قسمتُ البلاد إلى أقسام، كان الدافع هو تيسير نجاح تقدم الزراعة، لكن كان هناك نقص في الاهتمام والدقة من جانب مأموري الأقسام، خاصة النقص في الاهتمام الموجه لزراعة المحاصيل المحسّنة الجديدة(!!)، ولهذا فقد قررت أن أزور أركان البلاد، وأعاين القصور من جانب أي مأمور أو حاكم خط أو شيخ أو خولي، وسأجمعهم جميعاً في منتصف الأرض التي أهملت، وسآمر بحفر حفرة ودفنهم أحياء" !!

أما الأعجب من ذلك فهو الحنان المتدفق الذي يصعب على التصديق والذي لا يخلو من حزم أبوي جميل حين يبعث الباشا بخطاب لأحد أبنائه أو أحفاده، فعندما يبلغه بأن حفيده الطفل الأمير "عباس" قد أصبح متكاسلاً في متابعة دراسته أرسل إليه قائلاً: "ولدي.. روحي.. إذا ما كان ذلك صحيحاً فإنه ليس

من اللائق أن تقضي أيامك دون دراسة، أرنا حماسك، وعد إلى سبل اجتهادك السابقة، وأبلغنا أية سورة وصلت إليها في حفظ القرآن، وأي مواد قمت بقراءتها، كذلك نرغب في أن نرى نماذج من خط يدك"، ثم أضاف ملحوظة حذر فيها الصبي من أن يصغي إلى أولئك الدساسين الذين أخبروه بأنه سينال مركزاً رفيعاً في الدولة على الرغم من كل شيء، لأنه إن لم يستذكر دروسه فلن يحصل على أي مركز أو ينال درهماً واحداً !

وبعد ثلاثة أشهر طلب "محمد علي" كراسات "عباس" ليتفحصها بنفسه، ويبدو أنها قد أثارت استياء الباشا بشدة لأنه قد أرسل بعدها خطاباً إلى الكتخدا (نائب الوالي) يأمره فيها بأن يعمل على أن يتابع "عباس" دراسته بجد وإلا فإنه سيأتي لينتف له ذقنه!

أو مراسلاته مع ابنه "سعيد" الذي أصبح ملازماً في البحرية المصرية وهو في الـ 13 من عمره، ووضعه "محمد علي" تحت رئاسة أمير البحر "ماتوش" باشا، وطلب من أمير البحر أن يعامله فوق ظهر السفينة كما يعامل أي ملازم آخر، بلا أي تمييز..

كتب "محمد علي" إلى ابنه: "هل تذكر أنني قلت لك إن ملك إنجلترا قد خدم في البحرية برتبة الملازم وتدرج في الرتب مثل كل الضباط الآخرين حتى أصبح أدميرالاً وبعد ذلك بقليل أصبح ملكاً؟ فمادمت على ظهر السفينة فتذكر أنك لست إلا مجرد ملازم، وعليك أن تقوم بالمهام التي تكلف بها وأن تتعلم فنون البحر وعلومه، وأن تطيع رؤساءك من الضباط، لقد أرسلتك إلى البحرية على أمل أن تصبح منارة للأسرة، ولقد وصلت إلى أذني شائعات مفادها أنك لا تقف انتباهاً لرؤسائك، وأن ماتوش باشا لا يجلس حضرتك حتى تأذن له، يا ولدي، يا حبة عيني، لقد أرسلتك للبحرية طبقاً للتقليد البريطاني، ومادمت هناك

فعليك أن تتصرف كما ينبغي للملازم أن يتصرّف، فأنت لست سوى ضابط صغير على السفينة ويجب أن تعامل كذلك، وحين تغادر السفينة فأنت ابن محمد علي، وعلى الجميع أن يخضعوا لك وأن يحترموك، وكلما زدت من علمك ومعرفتك علا صيتك"

وقد أظهر "محمد علي" لبناته المحبة نفسها التي أغدقها على أبنائه، وفي تلك الأيام لم تكن نساء الطبقة الراقية يتلقين إلا تعليماً ضئيلاً إن كن يتلقين أي نوع من التعليم أصلاً، ولكن "محمد علي" قد خصص معلمين لبناته، وفي رسالة منه لأصغر بناته امتدح مهارتها في دروسها وفي نماذج الخطوط المختلفة التي أرسلتها له بناءً على طلبه، فكتب يقول لها: "إن أحب أمل إلى قلبي أن أراك تظهرين الحماسة في القراءة والكتابة، ابعثي لي من وقت لآخر بتقارير عن تقدمك في التعليم"

لكن كل أحلام الباشا العجوز تبخرت للأبد مع توقيع معاهدة لندن، ولا ريب أن الشعور بالفشل والإحباط كان مضاعفاً عند رجل اهتم طوال عمره بأدق وأصغر التفاصيل ليبني دولته العظيمة وليعد أبناءه من بعده ليرثوها، وكان من الممكن أن تدمر هذه الضغوط أي رجل آخر أقل عزيمة وإصراراً من "محمد علي"، ولكنها وإن لم تدمره تماماً فإنها قد حطمت روحه تماماً..

وربما كانت أحد اهتمامات "محمد علي" في تلك الفترة هو إنهاء بناء مسجده الذي بدأ العمل فيه منذ سنة 1830 م، واستمرت أعمال البناء فيه حتى سنة 1848م، وقد اختار "محمد علي" بناء مسجده داخل قلعة "صلاح الدين الأيوبي"، ليشرف المسجد على القاهرة كلها، وكان "صلاح الدين" قد طلب من وزيره "بهاء الدين قراقوش" أن يبني القلعة في "أطيب بقاع القاهرة هواءً وأكثرها مناعة"..

وبعد ذلك بعدة سنوات بدأت تظهر علامات اختلال القوى العقلية على "محمد علي"، والتي قيل إنها نتجت عن تناوله جرعات عالية من نترات الفضة التي وصفها له أطباؤه الإيطاليون لعلاج الديسونتاريا ، وربما أدّت نترات الفضة لشفائه من الديسونتاريا لكنها أدت كذلك إلى متاعب عقلية متكررة، وأخذ "محمد علي" يصاب بنوبات من الجنون تعقبها فترات من التعقل، أما الذين لم يعرفوا شيئاً عن تناوله لهذا الدواء فقد أرجعوا هذه النوبات إلى خرف الشيخوخة الذي ألم به لاعتياده تناول دواء مقوٍ لقدراته الجنسية بعد أن أهدته إحدى بناته جارية جديدة! ، ولم يكن أمام "إبراهيم" باشا ابن "محمد علي" إلا أن يعقد مجلساً خاصاً برئاسته، واستقر رأي المجلس أن يتولى هو شئون الحكم بدلاً من أبيه، فتولى الحكم في إبريل 1848م، ولم تطل فترة حكمه، فتوفي بالسل بعد سبعة أشهر، وكانت حالة "محمد علي" قد تدهورت فلم يعرف أن ابنه البكر قد مات، وأن حفيده الجهول "عباس الأول" قد أصبح حاكماً لمصر، وفي 2 أغسطس 1849م توفي "محمد علي" في قصر رأس التين بالإسكندرية، ونقل جثمانه في مركب حتى بولاق، ولم يكن "عباس" في استقبال جده، ولم يعبأ بأن يعد له جنازة تليق به ولا أن يشارك فيها، فكانت الجنازة متواضعة جداً لدرجة تدعو للرثاء، ولم يتم دعوة كبار رجال الحكومة أو الدبلوماسيين الأجانب لحضور الجنازة، كما لم تغلق المحلات أو المكاتب حداداً عليه، ولكن شعب مصر كله بكاه بحرقة، وساد الجميع شعور عام بأن رخاء مصر قد مات مع "محمد علي"، ودفن "محمد علي" في قبره الذي أعده في مسجده في القلعة، وكأنه اختار أن يدفن في "أمنع بقاع القاهرة وأطيبها هواءً"، وأن تظل عاصمة إمبراطوريته الشاسعة التي أنشأها من العدم ترقد دائماً أمام ناظريه وتحت قدميه !

المراجع

- عجائب الآثار في التراجم والأخبار: عبد الرحمن الجبرتي
- تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر: عبد الرحمن الرافعي
- عصر محمد علي: عبد الرحمن الرافعي
- مصر المجاهدة في العصر الحديث: عبد الرحمن الرافعي
- مصر في عهد محمد علي: عفاف لطفي السيد مارسو
- محمد علي مؤسس مصر الحديثة: جي فارجيت
- مصر من نافذة التاريخ: جمال بدوي
- أنا المصري: جمال بدوي
- يوميات من التاريخ المصري الحديث: لويس جرجس
- الجبرتي وكفاح الشعب: محمود الشرقاوي
- المصريون وحملة بونابرت: حلمي النمنم
- هذا هو المعلم يعقوب: د/ أنور لوقا
- رؤية الرحالة الأوربيين لمصر: د/إلهام ذهني
- تأملات في ثورات مصر: محمد عبد الفتاح أبو الفضل
- عصر محمد علي ونهضة مصر في القرن التاسع عشر: د / عبد الحميد البطريق
- محمد علي .. رؤية لحادثة القلعة: حسين كفافي
- الأسطورة والحقيقة في التاريخ المصري الحديث (محمد علي وجمال عبد الناصر): د/ذوقان قرقوط

الفهرس

حدوتة مصرية

هذا الكتاب ليس تأريخا لحقبة فاتت وانتهت، وإنما هو إعادة تصفح وقراءة في أوراق الماضي القريب من منظور الإنسان المهموم بقضايا اليوم، الذي يلتمس سبل الإصلاح على المستوى الفردي والجمعي. وفي هذا الإطار، يقلب الكتاب في صفحات الماضي لا ليستغرق فيه وينقطع بقارئه عن الحاضر، بل ليستخرج منه صورا ومشاهد مر عليها الكثيرون من قبل دون أن يلتفتوا إلى دلالاتها المهمة لحياتنا المعاصرة. إنه كتاب لا يرجع بقارئه قرونا إلى الوراء، لكنه يستحضر ما فات ليضعه في قلب اللحظة الحاضرة بما تحمله من شواغل وهموم.

أما لماذا فترة الحملة الفرنسية وعصر "محمد علي" على وجه التحديد - رغم عشرات ومئات الكتب التي كتبت عنها - فذلك
ملامح مصر المعاصرة قد رُسمت في هذه الفترة التاريخية، أ
تطورات أفرزتها قوى الحراك الاجتماعي والسياسي وال
بحق فترة من أثرى الفترات في التاريخ المصري الحديث الت
القراءة والاكتشاف مرات ومرات.

